نظرة في وسط إفريقية

رحلة وأحاديث عن أحوال المسلمين

بقلم
محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

فسح وزارة الاعلام برقم ٢٧٢٦ /٤م
وتاريخ ٢٤ /٤ /١٤١٠هـ

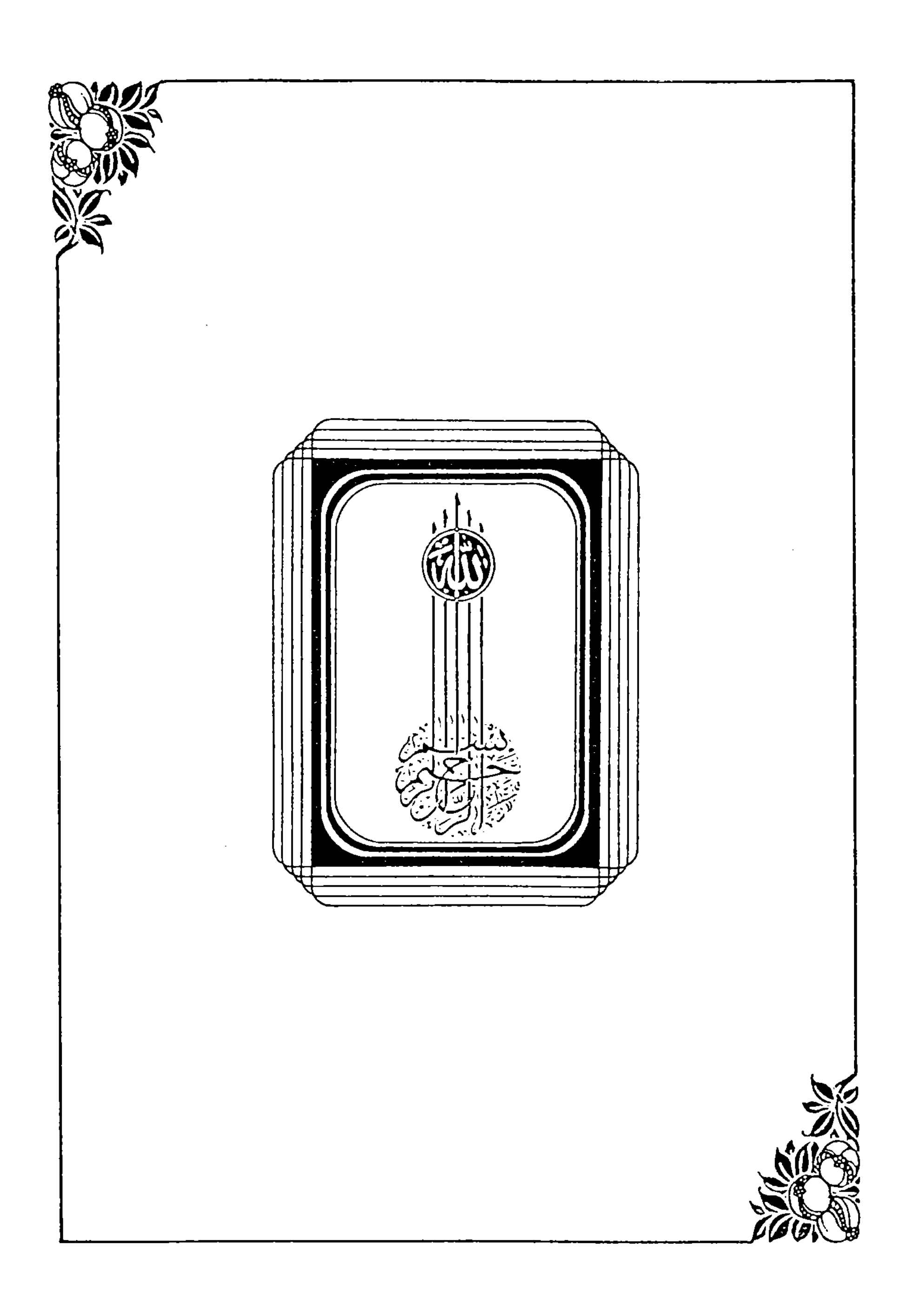

الحمدلله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. والصلاة والسلام على أشرف خلقه أجمعين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن هذا الكتاب مذكرات يومية سجلت فيها ما شاهدته، أو سمعت به مما يتعلق بما شاهدته، وما استنتجته من ذلك وسلكت فيه ما سلكته في كتب لي سابقة في الرحلات، وبيان أحوال المسلمين المعاصرين في أنحاء كثيرة من العالم، بل في أنحاء العالم كله.

وقد استقبلها قراء العربية الكرام استقبالاً مناسباً، وأحلوها من أنفسهم محلاً لم يكن طموحي يصل إليه، بل ولا إلى ما قاربه.

ولا شك في أن مرجع ذلك إلى حب القاريء الكريم للمعرفة ولتعلقه بالإطلاع على أحوال المسلمين في أوطانهم وأحوال الذين يساكنونهم وهناك أمر ثالث ربما كان له أثر في قبول الإخوة القراء قراءة كتبي المماثلة لهذا الكتاب. وهي أنها كتب غير عميقة، أو قل — إن شئت أن تجامل الكاتب: إنها كتب غير معقدة، وأياً كان الأمر في حكمك هذا فانني أعتقد في نفسي أن كتبي هذه غير عميقة، وأنها غير معقدة. وأضيف إلى ذلك شيئاً آخر من عندي ربما لا يذكره القاريء لي، وإن كان كثير من الإخوة غيره قد أبدوه وربما أعادوه وهو أنني أعتني أحياناً بما يسميه بعض الناس التوافه من الأمور. وقد سماها أحد الأخوة الأدباء وهو الدكتور محمد بن سعد بن حسين نافلة القول وذلك في حديث أذاعه من الاذاعة السعودية مقرضاً فيه كتابي «في افريقية الخضراء»

وضرب مثلاً على ذلك بالحديث عن المضيفات وما يتعلق من ذلك بالطائرات قال ذلك بعد أن اثنى ثناء عاطراً على الكتاب.

ومع احترامي لرأي الأخ الدكتور الكريم وغيره من القراء الأدباء الذين أحترم آراءهم لأنني في الحقيقة أكتب لهم وإن كنت في أول الأمر اكتب لنفسي لكي أقرأه بنفسي. ومادام الأمر كذلك فإن في امكانهم بل من حقهم أن يبدوا آراءهم فيما أكتبه.

غير أنني أيضاً من حقي أن أمضي فيما رأيته، وأن أسلك ما اتبعته من سبيل في هذا الموضوع وان كنت أرجو أن أحيط القاريء الكريم علماً بأنني عندما أفعل ذلك فإنني لا أفعله عن سابق رسم أو تصميم، وإنما أفعله منطلقاً من سجيتي في الكتابة، وعادتي في تسجيل المرئيات والملاحظات و (لكل امريء من دهره ما تعود) كما قال: أبو الطيب المتنبي.

ولقد وجدت من القراء الكرام المحبذين لهذه الطريقة أعداداً تزيد أضعافاً مضاعفة على أعداد الإخوة الذين لا يريدون الكتابة عن بعض الأشياء التي يعتبرونها تافهة. أو لا يرون أنها تستحق الكتابة، فضلاً عن رأي بعضهم في عدم ذكر ما يستحيا من ذكره في العادة في بلادنا وهو الحديث عن النساء وحلاهن وأوصافهن، فضلاً عن جمالهن أو ما هو عكس جمالهن، وفضلاً عن ملابسهن وأعمالهن إن كانت لهن أعمال اطلعت عليها.

وانني أحب هنا أن أنبه إلى أن بعض الإخوة الذين تطرقوا إلى هذا الموضوع نظروا إليه من زاوية قياس حالة النساء في بلادنا على حالة

النساء في خارجها أوهم ـــ إن لم يكن الأمر كذلك ـــ متأثرون بهذه النظرة. وقد فاتهم أن يتذكروا أن المرأة في البلاد التي خرجت فيها من البيت، وصارت تعمل أو صارت تهمل وقتها وبيتها إنما خرجت بذلك من كونها (حرما مصوناً) إلى كونها شيئاً بارزاً، فهي من هذه الزاوية قد أصبحت كالرجل وما الفرق بينهما لدى السائح من مجرد النظر في الشارع أو في ميادين العمل؟.

فليس من المعقول أن ينظر السائح إلى ما يراه مستغرباً من مناظر الحيوان والنبات والأشجار، فضلاً عن الأبنية والميادين، أو مناظر الغابات والبساتين. ولا يستطيع أو لايسجل ـــ سواء أحب أم لم يحب، وسواء أقصد أو لم يقصد ـــ مناظر النساء اللائي هن في كل مكان من الشارع إلى ميدان العمل. ومن المدينة إلى القرية بل إلى الكوخ إن وجد الكوخ.

وقد أصبحت النساء ظاهرات سافرات وأكثرهن كن كذلك منذ أن أنسلتهن أمهاتهن، ولم يبق من بلاد التحجب، التي تثير التعجب إلاَّ زوايا قليلة من بلاد الدنيا الواسعة.

ومن البدهي أن قلة هذه الزوايا أو ضيقها لا يضيرها، ولا يعيب المتخفيات في ستورها، وإنما ذلك لمجرد التعريف في التصنيف.

وقد اخترت لهذا الكتاب عنوان: «نظرة في وسط إفريقية» لأن مصطلح وسط إفريقية أصبح يطلق على بلد بعينه هو جمهورية وسط إفريقية.

وسيجد القاريء الكريم في هذا الكتاب الحديث عن المرور

بجمهورية الكاميرون ثم الكلام على جمهورية إفريقية الوسطى ثم الذهاب منها إلى جمهورية النيجر مروراً بمطار (انجا مينا) عاصمة تشاد.

وأما الحديث عما بعد ذلك وهو الحديث عن النيجر فإنه ألف مع أحاديث سابقة كتاباً قائماً بذاته عنوانه: «أيام في النيجر».

وكان رفيقي في هذه الرحلة أبا محمد السفير عبدالوهاب الدكوري عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ومدير مكتب الرابطة في السنغال، ونعم الصاحب في السفر هو.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

(إلى الكاميرون)

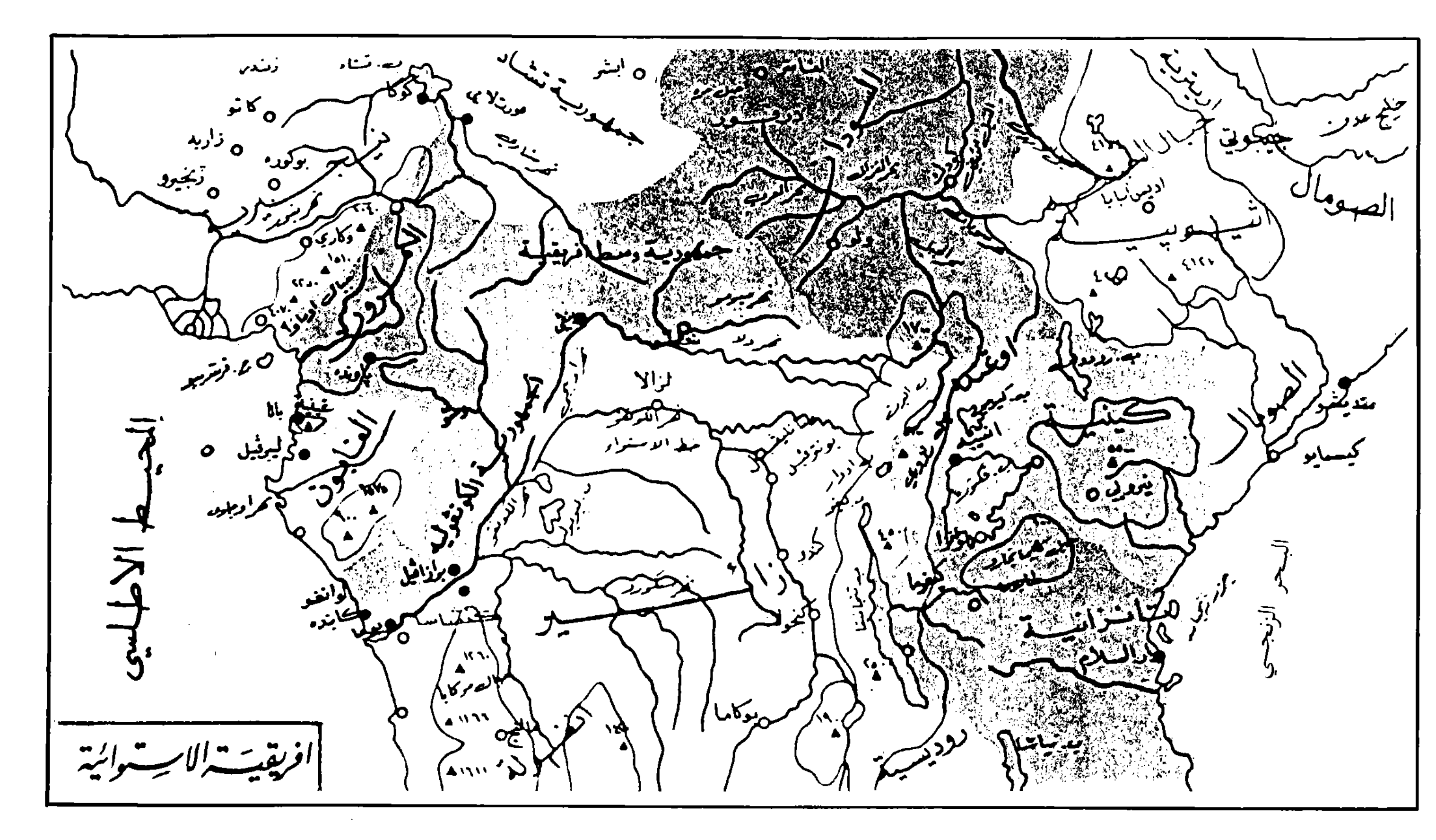
افريقية الاستوائية
المحيط الاطلسي
البحر الزنجي
الصومال
اثيوبيا
اديس ابابا
خليج عدن
جيبوتي
اريتريا
كينيا
تنزانيا
دار السلام
روديسيا
الكونغو
الغابون
ليبرفيل
برازافيل
كانو
زاريه
تنجيو
ابشر
جمهورية تشاد
جمهورية وسط افريقية
مقديشو
كيسمايو
بوكاما
نيروبي
بحيرة فكتوريا
اوغندا
نيامي

يوم الثلاثاء ٢٤ /٤ /١٤٠٥هـ ــ ١٥ /١ /١٩٨٥م

لم يكن الكاميرون في خط رحلتنا المقرر في الذهـاب إلى إفريقية الوسطى والنيجر وهاتان هما اللتان قصدنا السفر إليهما أما الأولى فلتفقد أحوال المسلمين فيها ومعرفة أوضاعهم والمشكلات التي تواجهها الدعوة الإسلامية هناك ثم اقتراح الحلول الكفيلة بمواجهتها وهي ليست زيارة رسمية بل هي زيارة عمل ولكنها زيارة لا علاقة لحكومة تلك البلاد بها.

وأما الثانية وهي النيجر فإنها في زيارة عمل أيضاً ولكنها زيارة رسمية علمت بها سفارة النيجر في المملكة العربية السعودية كما علمت بذلك حكومتها وعلى رأسها رئيس جمهوريتها «حسين كونتشي».

وكان المقرر أن نبدأ بالنيجر. وبأن نسافر هذا اليوم إلى «نيامي» عاصمتها ثم ننهي زيارتنا لها ونسافر إلى «بانقي» عاصمة جمهوية إفريقية الوسطى، وبذلك ننهي مهمتنا العملية وأبدأ إجازة أقضيها في أطراف من المغرب العربي. وبخاصة من الصحراء في الجزائر أو المغرب. غير أن سفارة النيجر اتصلت بي وقالت: إنها تلقت من رئيس الجمهورية خبراً يطلب فيه أن نؤجل قدومنا إلى النيجر مدة أسبوع لأن الرئيس موجود الآن خارج العاصمة وهو يريد أن يستقبلنا فيها وإذا قدمت في هذا الموعد لم تمكن مقابلته.

وقالت السـفارة: إن الرئيـس يـرى أن يكـون قدومكـم يـوم ٢٤ ينايـر أي يـوم الثلاثـاء مـن الأسـبوع المقبـل مثـل هـذا اليـوم. ولذا

غيرت خط السير في الرحلة وجعلته إلى «جمهورية إفريقية الوسطى» أولاً بعدها النيجر. وكان لابد من المرور بمدينة «دوالا» في الكاميرون لأنه لا طريق لنا غيرها.

ومن هناك إلى (بانقي) عاصمة إفريقية الوسطى. وقبلها المرور بمطار أديس أبابا عاصمة الحبشة، فكان لابد من كتابة شيء عما شاهدناه في الكاميرون.

من جدة إلى أديس أبابا :

ليس في هذا الجزء من الرحلة ما يستحق أن يذكر للقاريء الكريم ولكن فيها ما يشوق الكاتب تذكره وتدبره في الذهاب إلى العاصمة الحبشية «أديس أبابا» أو الزهرة الحديثة إن لم تكن ترجمتها إلى اليانعة وكانت زهرة حديثة عندما زرتها زيارة ممتدة في عام ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م. ولكنها الآن زهرة ذابلة يابسة ــ إن صح انها لا تزال زهرة فقد تظاهر عليها جدب العقول في هذه الثورة الاشتراكية في بلد ليس هناك ما يشترك فيه أهله إلا الإفلاس، ثم سلط عليها جدب الزمان، فكفت السماء عن المطر. وتوقفت الأرض عن الإنبات، وجفت الأودية، ونبت الملح في مسايل المياه العذبة فاشترك أهالي الحبشة في الموت جوعاً، كما كانوا قد اشتركوا في الجدب المعنوي خضوعاً للامبراطور الراحل «هيلاسلاسي».

وكان الحاكم المطلق السابق اسما ومعنى «هيلاسلاسي» أوقوة الثلاثة التي هي الأب والابن والروح القدس عند النصارى قد خلف حاكماً مطلقاً أيضاً وإن كان يدعي الاشتراكية الجماعية في القول والفعل «هيلا مريم» قوة مريم فكلا الرجلين الحاكمين يتصدر اسمه اسماً دينياً

نصرانياً. وكلاهما قد ناصب طائفة من المسلمين في ارتيريا العداء، وواصل الحرب ضدهم بدون ارتخاء.

والذي أهمني من هذا الأمر الآن هو تذكر ما كان ومقارنته بما هو كائن في الوقت الحاضر لمعرفة ما سيكون غداً، ولكننا في الحبشة مارون سائرون وذلك يفعله المقيمون القارون. لذا سنتركه إلى استعراض ذكرى أو ذكريات سريعات أثارتها نظرات من خلال نافذة الطائرة الحبشية ثم محيت من الذاكرة بأسرع ما محيت به من النظر.

تركت الطائرة الحبشية التي ركبنا فيها في الدرجة الأولى في الساعة السابعة صباحاً مدينة جدة ميممة وجهها شطر أديس أبابا جهة الجنوب الغربي. وكانت الدرجة الأولى مليئة رغم كون الموظف في مكتب الترحيل كان قد قال لي: إنه لا حاجة إلى وضع الرقم على بطاقة الدخول لأن الركاب في الأولى قليل. ولكنني وجدتها مليئة بقوم كلهم من الإفريقيين وأكثرهم إن لم يكونوا كلهم من النيجيريين — سكان نيجيريا وليسوا سكان النيجر — وليس فيها من هو غير افريقي إلا أنا.

وقيل لي بعد ذلك: إن هؤلاء النيجيريين هم في الأصل من ركاب السياحية. ولكنهم ركبوا في الأولى لسبب من الأسباب، وربما يدل على ذلك ان جارة لي سمينة منهم أخذت باقي طعام الفطور الذي كان سخيا وقد أخذته الطائرة من جدة ثم أخذت الجارة من صحني من دون استئذان بقايا العلب الصغيرة التي فيها العسل والجبن والمربى عندما عرفت أنني لم افتحها ولا أريدها وأدخلتها أيضاً في حقيبتها.

الكبيرات والكبراء :

اللغة الحبشية هي شقيقة العربية لأنهما معاً قد انسلا من الأم السامية القديمة ولكن تباعد العهد وتنائى السكان فيهما قد أبعد ما كان بينهما من قرب إلا أنه لا تزال فيهما بقايا تلحظها أذن السامع ومن ذلك أن أول كلمة كانت تقولها المضيفة بالطائرة وهي التي تقابل في العربية جملة «سيداتي سادتي» أو بالانكليزية «ليدز اند جنتلمن» هي «كبيرات انَّ كبرا» أي: أيها الكبيرات والكبراء.

لاسيما أن المضيفة نفسها هي سوداء سواداً غير حالك ولكن تقاسيم وجهها وحالة شعرها تبعد بها عن افريقية والافريقيين وتثبت العبارة التي قلتها قبل سنين وهي أن الأحباش عرب اسوَّدُّوا.

وهذا ليس بغريب إذا عرفنا أن الأحباش والأحابيش هي تعني الأخلاط والمختلطين لأن سكان الحبشة الأصلاء هم عرب في الأصل من الجزيرة العربية دخلوا إلى إفريقية واختلطوا بسكانها الأصلاء من الحاميين فسموا بذلك. ومن هذه التسمية في العربية «الأحابيش» من قريش وهم المختلطون أي غير الخالصين لجد واحد أو لأب واحد.

ومن الأشياء التي كنت قد قلتها في الأحباش عندما كنت أتردد على إفريقية الشرقية قبل عشرين سنة إنهم من أحسن الناس أدباً وأفضلهم خدمة، غير أنني لاحظت أنهم تغيروا عن ذلك قليلاً وإن كانوا لا يزالون أفضل من غيرهم من الإفريقيين في هذا الأمر بمراحل.

وقد أعلنت المضيفة بالانكليزية بعد الحبشية أن مدة الطيران إلى أديس أبابا ستكون ساعة وأربعين دقيقة.

وعند الإقتراب من أديس أبابا تجلى الفرق العظيم بين منظر أديس أبابا والمنطقة القريبة منها في هذا العام، وما كنت قد رأيتها عليه قبل عشرين عاماً فقد كانت في ذلك الحين خضراء خضرة كثيفة تجري فيها مسايل المياه التي كانت تكتظ بالسيول. وأما اليوم فقد رأيتها مغبرة الأفق، مجدبة الأديم. رمادية المنظر، بل هامدة ماعدا شجيرات كبيرة قليلة متفرقة.

ومن المفزع بالنسبة إليَّ أنني رأيت مسايل المياه القليلة قد ركبتها مادة بيضاء تشبه الملح أو القطن المنثور لا أدري ماهي، ولكنني رأيتها في أكثر المنطقة التي طارت فوقها الطائرة.

ولا شك في أن آثار هذا الجدب والمحل هي المجاعة التي أصابت البلاد، ومات بسببها الألوف المؤلفة من الناس في الحبشة التي لا تزال حكومتها تهتم باستيراد السلاح لمقاتلة المسلمين وغيرهم من مواطنيها في الشرق والشمال بل وهي تؤوي العناصر المتمردة في جنوب السودان بدلاً من أن توفر كل ذلك لمكافحة المجاعة وإنقاذ أهل البلاد من الموت جوعاً. وقد وكلتهم إلى العون الذي يأتيهم من أنحاء العالم.

وعند الهبوط في المطار رأينا طائرات تفرغ حمولتها من الحبوب والأغذية التي وصلت إليهم من الإعانات الدولية. وبعضها تحمله طائرات ربما من أجل أن تذهب به إلى أماكن أخرى في البلاد لا تصلها السيارات بسهولة لتخلف البلاد وقلة الطرق الازفلتية الصالحة فيها.

ومن الأشياء اللطيفة في المطار انهم كتبوا على واجهته كلمة «مرحباً» بالعربية بخط كبير بجانب كلمتي «ويلكم» الانكليزية و«بيان فني» الفرنسية.

الركاب كلهم عابرون :

من الغريب الملفت للنظر أن معظم ركاب طائرتنا كأكثر الطائرات الهابطة في المطار هم من الركاب العابرين وليسوا من الواصلين النازلين في «أديس أبابا» ذلك بأن اليسارية أفقرت التجار، وتظافر معها الجفاف. فأصبح الشعب لا يقوى على السفر، وحتى بالنسبة للمشاريع الحكومية الإنمائية لم يبق منها أيضاً ما يستحق الاهتمام فأصبح العاملون في الشركات والمصانع العالمية الذين يترددون في العادة على البلاد النامية التي فيها مشروعات استثمارية لا يفعلون ذلك هنا.

وبقي أمر واحد وهو انتظام رحلات الخطوط الجوية الحبشية، وكونها أحسن الشركات الإفريقية خدمة واصدقها مواعيد، وأحسنها إدارة وليس ذلك لحسن في نفسها وإنما هو لسوء في إدارة بعض شركات الطيران الإفريقية خلف الصحراء التي منها مثلاً شركة (زايير) الدولة الغنية التي لا تقبل الشركات الأخرى تذاكرها وقد تجلى ذلك عندما اتجه معظم ركاب طائرتنا إلى قاعات العابرين فوجدناها مزدحمة بركاب نزلوا من طائرات أخرى أيضاً.

وكان لكثرة الركاب أثر في تكدسهم أمام الموظفين الذين يطلب منهم أن ينهوا اجراءات تحويل التذاكر ولكنهم يعملون كل ذلك بأيديهم ومن دون آلات حاسبة معتادة فضلاً عن الحاسب الآلي «الكمبيوتر» مما جعل الوقوف أمامهم في طوابير منتظمة بجانبها أكداس من الركاب الذين لا يعترف بعضهم بالوقوف في الصفوف.

من أديس أبابا إلى دوالا :

قامت طائرة أخرى اثيوبية بعد أن نقلوا إليها الأمتعة وما كادت تقوم لأنه حدث لغط عند بوابة النزول من قاعة العابرين إلى الطائرة إذّ تبين أن الموظفين قد قطعوا بطاقات الدخول لعدد أكبر من المقاعد الموجودة في الطائرة فحدث هرج ومرج وتدافع بالأيدي حتى إن راكباً نيجيرياً اقتحم البوابة بقوة ودخل إلى الطائرة قائلاً: «إنه يحمل بطاقة دخول الطائرة ولا يمكن إيقافه عن السفر.

وكانوا قد بدأوا باركاب الدرجة السياحية وجعلونا نحن ركاب الأولى بعدهم فشهدنا ذلك كله، وكادوا في غمرة النزاع يمنعوننا حتى دخلنا بصعوبة.

وكان المقرر أن تقوم الطائرة في العاشرة إلاَّ ربعاً ولكنها لم تقم إلا في الحادية عشرة الا ربعاً وقد اعتذر الطيار عن هذا التأخير وقال: إن سببه هو العمل في تحويل التذاكر.

وأعلنت المضيفة أن الطيران سيكون إلى نيروبي عاصمة كينيا قبل «دوالا» وانه سيكون بعد «دوالا» إلى لاجوس ثم نهايته في «أبيجان» عاصمة ساحل العاج.

وقالت إن الطيران إلى نيروبي يستغرق ساعة وخمساً وثلاثين دقيقة. وتكرر المنظر الجاف من الطائرة. بل كان المنظر الذي لا منظر غيره. وتكرر منظر الوديان التي غشيتها مادة بيضاء غريبة.

وبانت منازل المواطنين في الريف وهي أكواخ ذات سقوف من القش

هرمية الشكل ولكنهم يحيطونها بحائط خارجي لا أدري أهو من الطين أم غيره، واعتقد أنه من أغصان الأشجار وكل بيت وحده منفرداً.

وعندما وزعت المضيفة الجرائد والمجلات كانت فيها مجلة «الحوادث» اللبنانية وهذا نظير ما فعلوه عندما قامت الطائرة من جدة واحضروا لي وللشيخ الدكوري جريدة «الشرق الأوسط» وإن كان قيامها من أديس أبابا إلى نيروبي وهما بلدتان غير عربيتين ليس كقيامها من مدينة عربية هي جدة.

وصلت الطائرة إلى مطار نيروبي في الثانية عشرة وعشر دقائق، ومطار نيروبي عرفته منذ أكثر من عشرين سنة وكان مع قدمه في ذلك الوقت أحسن مطار في المنطقة فهو أحسن خدمة من مطار «أديس أبابا» وكان عامراً في ذلك الحين بطائرات شركة شرق إفريقية للطيران «ايست افريكا اير لاين» وهي التي تكالبت عليها الخلافات بين الدول الثلاث المشتركة فيها وهي كينيا وأوغندا وتنزانيا حتى مزقتها وتلاشت من الوجود مع أن عدد الدول فيها لا يزيد على ثلاث على حين أن شركة «اير أفريك» التي تساهم فيها عشر دول من دول غرب إفريقية لاتزال موجودة بل قوية، إن لم نقل نامية حتى الآن.

ويمكن إرجاع ذلك إلى الحالة العقلية السياسية الواقعية لدول غرب إفريقية بالنسبة إلى الدول الشرقية.

كما يمكن أن يقول قائل: إنه ربما كان السبب هو فرق الثقافة المبني على الفرق بين المستعمرين السابقين وهما الانكليز والفرنسيون. فالملاحظ أن المستعمرات الفرنسية السابقة هي أحسن حالاً في التعليم وأفضل في الأمن بل وفي تدبير شئون المال والاقتصاد من المستعمرات الانكليزية السابقة.

وعندما أنشأ الكينيون هذا المطار كان من أوائل المطارات الفاخرة في إفريقية الخضراء التى يسميها الفرنسيون «إفريقية السوداء». وكانت منطقة نيروبي في تلك السنين مثل منطقة أديس أبابا في ذلك الوقت خضراء مطيرة في كل السنوات أو في أكثرها أما الآن فقد نالها نصيبها من الجفاف، وإن كان أقل من جفاف الحبشة.

من نيروبي إلى دوالا :

غادرت الطائرة مطار نيروبي في الواحدة ظهراً وأعلن مكبر الصوت فيها أن مدة الطيران إلى «دوالا» في الكاميرون تستغرق أربع ساعات إلاَّ ربعاً.

وهذه الطائرة الحبشية هي كالأولى من طراز بوينج ٧٢٧ وكان ركابها كثراً والسبب مثل ما كان عليه الأمر بالنسبة إلى قيامها من أديس أبابا إلى نيروبي.

ولت الطائرة وجهها شطر الغرب ففارقنا الجفاف بعد قليل. وصارت تطير فوق أراض شديدة الخضرة، مزدحمة بالعمارة.

وبينما كانت تطير فوق ضفاف بحيرة غير متسعة ربما كان ذلك بسبب ارتفاع الطائرة، تكلم الطيار فقال: إننا سنمر بعد عشر دقائق حول مدينة «كسنقاني» وهي المدينة الشرقية المهمة في زايير وقد تغير اسمها وكان في زمن الاستعمار البلجيكي «استانلي فيل» أي مدينة «استانلي» مثلما تغير اسم القطرالذي هي فيه من «الكنغو البلجيكي» إلى «كنغو ليو بولد فيل» ثم «كنغو كنشاسا» حتى استقر على ما هو عليه الآن «زايير» ومعناه الأسد بإحدى لغاتهم المحلية والمنطقة التي

تقع فيها هذه المدينة مثل بقية أنحاء «زايير» لا تشكو شيئاً من الجفاف الذي ابتليت به بعض البلدان الافريقية «الساحلية». بل قيل لنا: إن سقوط الأمطار زاد فيها في السنتين الأخيرتين عما كان عليه من قبل وكان كثيراً جداً.

ثم حجبت سحب متظاهرة منظر الأرض ومن عليها عمن في الطائرة فكان المنظر داخلها منظر المضيفات الحبشيات اللاتي يقدمن لركاب الدرجة الأولى ضيافة ممتازة بدأت بالمقبلات الفاخرة التي منها «الكافيار».

وعندما قدموه إليَّ لم أكد استسيغه إذْ كيف أقبل «الكافيار» من بلد يموت فيه بعض الناس جوعاً ولا يجدون كسرة من خبز أو حتى لقمة من «دويف»!

غير أنني تذكرت أن الموضوع بالنسبة إليهم هو موضوع تجاري فهم يريدون من ذلك أن يحافظوا على إقبال الناس على الركوب بطائراتهم. وقد تقاضوا ثمنه من تذاكرهم.

وكانت الأطباق التالية من أكل لهم محلي فيه «الكسرة» وهي خبزة لينة من نوع من الحبوب يشبه الدخن كنت آكلها في ارتيريا وأستطيبها ثم كان الطبق الرئيسي من اللحوم وغيرها لمن أراد ذلك.

في مطار دوالا :

قبل الوصول إلى هذا المطار تدنت الطائرة إلى الأرض قليلاً فظهرت الغابات الكثيفة بينها نهر صغير غير واسع، وبعده رأينا نهراً كبيراً أحمر الضفاف ربما لسبب كون الوقت في غير موسم الأمطار. كما ظهرت بعض الطرق الترابية وهي حمراء اللون وهذا هو اللون الذي عرفته للتربة الإفريقية الاستوائية في شرق إفريقية ووسطها من قبل. وهذه المنطقة هي بطبيعة الحال في غرب القارة إذ «دوالا» واقعة على المحيط الأطلسي.

ومن اللطيف في منظر النهر الكبير هذا أننا رأينا عليه شلالات ربما كانت طبيعية أو هي اصطناعية من أجل توليد الكهرباء.

واستمرت الطائرة في الاقتراب من المدينة فبانت طريق اسفلتية جيدة جداً في وسط الغابات ذات حواشٍ حمر من التربة.

أعقب ذلك منظر مستنقعات عديدة بعضها خضراء المياه لطول مكثها وقد تجاوزتها الطائرة وهي تتدلى إلى الأرض بسرعة فوق غابات متكاثفة مغلقة ليس فيها مساكن ولا عمارة ولا طرق إلا أن النهر الذي كنا قد رأيناه من قبل قد سبقنا أيضاً إلى هذه المنطقة ولم نر على ضفافه عمارة من زرع أو غيره ولاشك في أنه ذاهب إلى مقره الأخير في المحيط الأطلسي القريب من هذه المنطقة.

ثم بدت ضاحية من ضواحي المدينة ذات سقوف من الصفيح الأبيض مجاورة لمنطقة من مناطق المستنقعات والمياه الراكدة.

ثم نزلت الطائرة في المطار من دون أن تحوم فوق المدينة أو حتى تمر فوقها وذلك أنها جاءت من جهة الجنوب إلى المطار الذي هو واقع في الجهة الجنوبية عن المدينة.

وأعلنت المضيفة ان الوقت في «دوالا» يتأخر عن وقت أديس أبابا ونيروبي بساعتين فأخرت ساعتي كذلك لأن توقيت المملكة مساوٍ لتوقيت تلك المدينتين وهو يتقدم ساعتين عن توقيت الكاميرون.

وقفت الطائرة أمام دهليز متحرك في مطار يبدو عجيباً لأنه مبني أو على الأصح مقام على هيئة دهليز طويل فوق عمد من الإسمنت دقيقة بحيث يكون أسفل البناء خالياً. وقد انعطف بعد طول مؤلفاً ما يشبه حرف اللام بالانكليزية وتحيط به دهاليز متحركة يلقمونها باب الطائرة كما يكون في المطارات الحديثة.

وعندما دخلنا المطار رأيته جيداً بالنسبة إلى المطارات الإفريقية حاشا مطار نيروبي ولكنه ليس فاخر البناء.

أول من وقفنا عنده ضابطة الصحة. والنظر في الأوراق الصحية الصفراء تجاوزته البلدان المتقدمة لأن لشعوبها من الوعي الصحي بالوقاية ما يغني عن ذلك. وتركتها أكثر البلدان التي تليها في التقدم في التعليم مثل المملكة العربية السعودية، لأنها عرفت أن أكثر هذه الشهادات الصحية هي مزيفة فأكثر القادمين من البلدان المتخلفة يدفعون نقوداً ويحملون هذه الشهادات التي تشهد بتلقيحهم ضد بعض الأمراض وهم لم يلقحوا بشيء.

ولم نقف عند ضابطة الصحة طويلاً وإنما كان الوقوف الطويل عند ضابط الجوازات وهو وقوف دون كلام. إذْ لم يوجه إليَّ كلمة واحدة لأنه لا داعي لذلك فأنا أحمل سمة دخول سياسية من سفارة الكاميرون في جدة ولكنه كان يتأمل الجواز وضابطة بجانبه ربما كانت جديدة

على العمل وتحتاج إلى تمرين على أنواع الجوازات المختلفة. والأمر السهل كان عند ضابط «الجمرك» وضابطاته وهو الذي كنت أخشى منه لأني أحمل بعض الهدايا الرخيصة لبعض الافريقيين. ولكنهم بمجرد أن نظروا إلى أحد الجوازين قالوا: «دبلوماتيك» وانحنوا بالتحية مشيرين إلى طريق الخروج فجوازي وجواز رفيقي السفير عبدالوهاب الدكوري كلاهما سياسي. وقال الدكوري: إن القوم هنا طيبون.

والواقع أن طيبتهم في معاملة الأجانب حقيقية عرفتها منهم بعد ذلك.

في مدينة دوالا :

كانت أولى النظرات إلى بعض الأحياء الشعبية في مدينة «دوالا» بعد الوصول مباشرة إذْ ترك سائق السيارة الطريق العام وقال إنه سيذهب مع بعض الطرق الفرعية اختصاراً للطريق، واتقاء لزحام السيارات في الطريق العام. وكنا قد أخبرناه اننا نريد الذهاب إلى فندق «مريديان» غير أننا عرفنا أن الفندق ليس في قلب المدينة وأنا أحب إذا كانت اقامتي قصيرة في بلد أن أسكن في فندق من فنادقها التي تقع في وسط المدينة من أجل السير على قدمي في المدينة كلما سنحت الفرصة من الوقت.

فكان الانطباع عن هذه الأحياء الشعبية من المدينة أدنى مما تخيلت عليه مدينة «دوالا» في ذهني، لأن «الكاميرون» دولة ذات موارد طبيعية جيدة منها النفط إلى جانب الصادرات الوفيرة من البن والكاكاو والأخشاب.

فهذه الأحياء مؤلفة من بيوت أكثرها مبني بلبن الاسمنت ومسقف بالصاج الرديء وهي من طابق واحد وشوارعها ضيقة وغير ذات أرصفة، ومجاري المياه المستعملة تصب من قنوات تخرج من البيوت إلى مجرى عام على جانبي الشارع مكشوف.

وهذا هو الشارع في البلدان الاستوائية المتأخرة في آسيا وافريقية حيث يعتمدون على أن مياه الأمطار الغزيرة تنزل على هذه المجاري فتأخذ ما في هذه القنوات القذرة وتحمله إلى حيث النهر أو البحر.

وهذا ما جعلني أعرف لو لم أكن أعرف موقع البلاد من قبل أنها بلاد استوائية ويدل على ذلك أيضاً أشجار الموز الموجودة بين البيوت.

وفي هذه الشوارع سيارات لا بأس بعددها كثرة غير أن أكثرها سيارات عمل كالشاحنات ونحوها وتبين لي بعد ذلك أن السيارات الصغيرة المترفة كثيرة في شوارع الأحياء الحديثة من المدينة.

وأما الشعب فإنه الافريقي الاستوائي الأصيل الذي يسميه الأوربيون بالبانتو أو الزنجي وهو عندنا في لغتنا العربية غير أولئك، لأن الزنجي عندنا هو الذي من بلاد الزنج وهي شرقي القارة الإفريقية. ولا يسمى كل من كان أسود الجلدة زنجياً. وإنما أخذ ذلك بنو قومنا المتأخرون عن المصطلح الأوروبي فأسموا بالزنجي كل من كان أسود اللون.

والدليل على ذلك أن أهالي السودان الغربي من السنغال ومالي والنيجر كان أسلافنا العرب يسمونهم السودانيين، ولا يسمون احداً منهم زنجياً. حتى الذين كانوا يلونهم من سود إفريقية وربما كان منهم أهالي هذه البلاد الكاميرونية كانوا في عهد تدوين كتب الثقافة العربية على

غير دين ولا حضارة لذلك أسموهم بالهمج على اعتبار أنهم لا يلتزمون بشريعة من الشرائع السماوية أو الوضعية العامة في ذلك الزمان ونعتوا بعضهم بأنهم الهمج الذين يأكلون لحوم بني آدم.

وهي تسمية لها ما يبررها من الواقع في تلك العصور فهم همج لأنه لا شرائع ولا قوانين لديهم فضلا عن الأديان. وأما أكل لحوم بني آدم فإنه كان معروفاً عن بعضهم في القديم وحتى في هذا العصر لا تزال بعض الأماكن الموغلة في الغابة يؤثر ذلك عن سكانها كبعض الأماكن في الجابون و«افريقية الوسطى».

بل ان ذلك مما رمي به حتى رئيس دولة افريقية الوسطى الزائل الملقب بالامبراطور الزائف «بوكاسا» حيث قال خصومه: إنهم وجدوا في بيته بقايا لحوم آدمية. وإن كان ذلك مما يحتمل انهم رموا به لتشويه سمعته.

وأول انطباع كان عن هؤلاء القوم هو أيضاً خلاف ما كنت قد تخيلته عنهم من قبل فلقد زرت شمال الكاميرون القريب من حدود تشاد ورأيت الناس هناك أغلبهم من الذين يشبهون سكان السودان الغربي وليسوا ممن يشبهون الذين تقع بلادهم إلى الجنوب ولكنني رأيت عامة الناس هنا ليسوا من السودانيين الغربيين ولكنهم من أنسال أولئك الذين كان آباؤهم يسمون بالهمج وإن كانت صفة الهمجية قد زايلتهم، وأكل لحوم بني آدم قد بعد به عهدهم حتى أصبحوا لا يعرفون منه إلا ما كان يعرفه عنه غيرهم.

ولاشك أن السبب في ذلك هو الفرق ما بين شمال الكاميرون

وجنوبه هذا الذي نحن فيه الآن. وهناك شواهد رأيتها من السيارة على الأصالة الافريقية في هذه الأحياء منها كثرة «البسطات» وهي البضائع الصغيرة التي تنشر على الأرض للبيع وأكثر من يبيع فيها هن النساء رأيت واحدة منها فيها بصل جيد. قالوا إنه يستورد من المغرب لأن مثله لا تخرجه أرضهم. ورجل يبول في الشارع وهو واقف وقد أعطى وسط الشارع ظهره. وسوق سمك صغير متسخ المظهر، مما يدل أيضاً على أن البلاد بحرية يأكل أهلها السمك بكثرة والسوق مقام من أعمدة من الخشب الرديء تحمل أسقفاً من الصاج. وسوق صغير مكشوف أكثر البضائع التي فيه هي من الموز وقد جمعوه أكواماً مكومة.

ثم وصلنا إلى قلب المدينة الجيد فرأينا في حاشيته مصنعاً للمشروبات الكحولية ومنها الجعة (البيرة) وأبنية متعددة الطوابق «عمارات» بهيجة المنظر مما يدل على الرواج الاقتصادي إلا أن الشوارع لاتزال غير واسعة والأتربة موجودة في حواشيها مع أن تنظيف الشوارع لا يحتاج إلى علم وتقنية وإنما يحتاج إلى إدارة صالحة. وجميع الشوارع هنا مزفلتة وتختلف سعة وضيقاً ولكنها لا تختلف في قلة الأرصفة إلا في المناطق التجارية.

نزلنا في فندق «بارفيت قاردن» بعد أن طرقنا باب فندق كبير بجانبه فلم نجد فيه غرفاً خالية، وأجرة الغرفة فيه ١٤ ألف فرنك إفريقي غربي ويساوي ذلك حوالي ١٢٠ مائة وعشرون ريالاً سعودياً وهو فندق لا بأس به يساوي فنادق الأولى غير الجيدة، وموقعه في قلب المدينة التجاري وعلى شارع مهم من شوارعها.

في الحي التجاري :

لم نكد ننزل في الغرفة حتى تركناها إلى تمشية في هذا الحي التجاري من قلب مدينة «دوالا» فكان الملفت للنظر هنا أن اللغة الشائعة بين الناس جميعاً هي الفرنسية بخلاف شمال الكاميرون المجاور لتشاد حيث اللغة العربية الدارجة هي الشائعة هناك، ويتفاهم بها الناس فيما بينهم كما يفعلون هنا حين لا يستطيعون التفاهم بلغة محلية واحدة جامعة، فيتفاهمون بالفرنسية لأن اللغات المحلية في الكاميرون كثيرة متعددة حتى بلغ عددها في البلاد مائتين وثلاثاً وستين لغة.

كما أن من الملفت للنظر أيضاً صعوبة التكلم بالانكليزية رغم أن جزءاً من البلاد وهو الشمال كان مستعمرة انكليزية. ولكن هذه المنطقة الجنوبية التي منها مدينة «دوالا» كانت مستعمرة فرنسية إلى جانب كون اللغة الانكليزية إذا احتكت بالفرنسية هزمتها الفرنسية كما عرفت ذلك من قبل في عدد من جزر البحر الزنجي المسمى بالمحيط الهندي مثل موريشيوس ورينيون و«سيشل».

بل إنني وجدت الشيء نفسه في بلاد بعيدة عن المنطقة مثل جزر نيوهبريدز أو «واناواتو» كما تسمى الآن بعد الاستقلال. وكانت تخضع لحكم ثنائي من الانكليز والفرنسيين غير أن الفرنسية هي التي تغلبت على الانكليزية فيها كالمعتاد. وتقع في جنوب المحيط الهاديء.

ورغم كثرة السيارات الجديدة هنا من يابانية وفرنسية والأولى أكثر ورغم نفط الكاميرون ومواردها الأخرى فإنها لا تداني بعض البلدان العربية غير النفطية كالأردن مثلاً في كثرة السيارات.

ثم التقينا بصديق ثري لرفيقي السفير الدكوري من أهل مالي. وما أكثر الأثرياء الماليين ــ نسبة إلى المال ــ من أهل مالي في أقطار غرب إفريقية التي كانت مستعمرات فرنسية فهم هنا مميزون عن أهل البلاد بقاماتهم المديدة، وأشكالهم الوجيهة، وثيابهم الفضفاضة الغالية.

وهم إلى ذلك أو فوق ذلك معروفون بعقلياتهم المتميزة عن أمثال هؤلاء القوم من أهل البلاد الأصلاء ولاشك في أن الذين يعرفون ماضي هؤلاء الأخوة المسلمين الماليين ــ نسبة إلى بلادهم مالي ــ لا يستغربون ذلك منهم.

وعندما ذهب هذا الأخ المالي والنسبة هنا إلى ماشئت من ماله أو بلاده ــ كانت الشمس قد غابت.

وخرجنا بعد استراحة في الفندق لشرب الشاي في مقهاة على الرصيف قريبة من الفندق فرأيت ما أزعجني من كثرة البغايا اللائي لا يستخفين فضلاً عن أن يستحيين من عرض أنفسهن في الشارع وأكثرهن يسارعن في النظر ولا يكتفين بمسارقة النظر وإنما يعرضن أنفسهن على الغرباء، وبعضهن يلحفن. وهذه وصمة عار في جبين هذه البلاد الإفريقية.

فإذا كانت أعرافهم أو أديانهم أو لنقل أحكامهم في قوانينهم التي ورثوها عن مستعمريهم الفرنسيين لا تمنع من ذلك فليكن في حدود أو في قيود، أو داخل سدود. كما تفعل أكثر البلدان التي لا تعرف حدود ما أنزل الله على رسوله.

والملاحظ أن أكثر هؤلاء البغايا كأكثر ساكنات البلاد ليس فيهن ما

يغري بإعادة النظر فضلاً عن التفكير فيهن. ولكن.

لكل ساقطة في الحي لاقطة وكل بائرة يوماً لها رَجُل.

ولقد لاحظت بعض البيض الذين لا أدري إلى أي جنس ينتمون وهم يصطحبون سوداوات من أهل البلاد و «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وليس هذا الكلام قدحاً في السوداوات أو تفضيلاً للبيضاوات عليهن ولكنه قدح لفعلهن، لا يتعلق بلونهن كما كان قدحاً في أفعال نسوة لهن مثل عملهن، ولكن ليس لهن جلدهن في بلدان بعيدة عديدة من أنحاء العالم من البلاد التي يصح أن يقال في أهلها المثل العامي «لا خوف من الله ولا حياء من خلق الله».

ومن المضحك المبكي أنني عندما سمعني أحد موظفي الفندق أتحدث في هذا الأمر مع رفيقي الشيخ الدكوري بمناسبة مرور طائفة منهن وأخبره الدكوري بما أقوله بادر ذلك الرجل ليقول: هؤلاء لسن كلهن من الصائدات المتعطلات فبعضهن موظفات وبعضهن عاملات في النهار. وفي الليل يعملن هذا العمل لانه ليس لديهن رجال.

وكان هذا المساء الخالي من العمل مدعاة للنوم المبكر.

يوم الاربعاء ٢٥ /٤ /١٤٠٥هـ ١٦ /١ /١٩٨٥م

صباح دوالا :

أزحت ستارة النافذة الشرقية من غرفتي فرأيتها تطل على حي جيد رأيت منها وهي التي تقع في الطابق السادس بيوت هذا الحي من قلب المدينة كلها إسمنتية بعضها من المسلح وبعضها بلبن الاسمنت

ويجمع بينها أن سقوفها كلها من الصفيح المسنم الأبيض اللون الذي تغير أكثره بسبب المطر والجو، ولم يجدد طلاؤه.

وبين هذه البيوت أشجار من أشجار المناطق الاستوائية أهمها وأكثرها نخيل الزيت الذي يشبه نخيل التمر في بلادنا غير أنه أغلظ سوقاً، وطلعه يشبه بسر التمر إلا أنه صلب ويستخرج منه زيت أحمر يستعمل في الإدام للطعام ولأغراض أخرى، وهو نافع جداً في المناطق الاستوائية التي لا تعيش فيها حيوانات اللحم بكثرة بسبب الأمراض والحشرات التي تصيب الحيوان في مناطق الغابات، وعدم وجود أراضٍ منبسطة حافلة بالمراعي في تلك المناطق.

ولقد ذكرني مرأى نخيل الزيت بين تلك البيوت منظر نخيل التمر بين بيوت المدن في بلادنا. كما توجد على قلة أشجار (المانقو) في وسط هذه البيوت ورأيت بجانب هذا الحي بناء مؤلفا من عشرة طوابق وقد بنوه بطريقة غريبة إذْ جعلوه كأبنية الاءنكا سكان جبال الإنديز القدماء في أمريكا الجنوبيَّة من ناحية كونه عريض الأسفل ضيق الأعلى بحيث كلما ارتفع ضاق والظاهر أن هذا مستوحى من طراز للبناء قديم عندهم.

ومن الجهة الغربية من الفندق رأيت خوراً من البحر وهو الخليج منه داخلاً في الأرض وعليه أبنية حديثة فاخرة متعددة الطوابق وجسر يرى على البعد، ويشبه منظر شاطيء هذا الخور منظر شاطيء النهر لكثافة الأشجار والنبات على ضفافه. والسبب في ذلك غزارة الأمطار، وكثرة نزولها فتغسل عن الشاطيء أملاح البحر. والبحر هنا هو المحيط الأعظم المسمى الآن بالمحيط الأطلسي.

جانب من مدينة دوالا واقع على المحيط

ضريبة العمل في البلاد المتخلفة :

للعمل في البلدان المتخلفة في الإدارة ضريبة لابد أن يدفعها من يتعامل مع الناس فيها من وقته وجهده وماله.

وهذا ما حصل لنا اليوم فقد كنا قررنا أن نخصص صباح هذا اليوم لزيارة المساجد والاجتماع بالمسلمين في المدينة على اعتبار أنه اليوم الذي نقضيه كاملاً في الكاميرون في هذه السفرة، وأن نقضي النصف الأخير منه في الإطلاع على المعالم السياحية في هذه المدينة.

وقد أفطرنا مبكرين وكنت مسروراً لذلك سروري بالاطلاع على أحوال بلاد جديدة عليّ كالعادة. وذهبنا لبيت أخ مالي ثري إسمه «محمد يورو ماما» صديق للسفير الدكوري وكنا أعطيناه جوازاتنا الليلة البارحة ليرسلها مع أحد الإخوة إلى العاصمة ياوندي لكي تسعى السفارة

السعودية فيها بسمة دخول لنا إلى جمهورية إفريقية الوسطى التي سنسافر إليها غداً من الكاميرون على أن يعود بالجوازات مساءً وأن ندفع أجرة تذكرته وشيئاً من المكافأة له.

وذلك أنه لا توجد سفارة لافريقية الوسطى في بلادنا وكنت أرسلت الجوازين من مكة المكرمة إلى مدير مكتب الرابطة في جدة وطلبت منه أن يأخذ عليها من السفارة الفرنسية في جدة سمة دخول إلى جمهورية إفريقية الوسطى فأعاد الجوازين وقال: لقد تم كل شيء ولكنني عندما تأملتها بعد السفر عرفت أنه قد حصل لنا على سمة دخول لفرنسا بدلاً من جمهورية إفريقية الوسطى.

ولكن الأخ المالي «محمد يوروماما» ذكر لنا اليوم خبراً ساءنا وقد كنا قصدناه لشيء آخر وهو أن يصحبنا بنفسه أو يدلنا على شخص يفهم مواقع المساجد، ويعرف كبار المسلمين ليصحبنا في الجولة هذا الصباح غير أنه أخبرنا بما ساءنا وهو أن الرجل الذي كان سيسافر إلى عاصمة الكاميرون «ياوندي» لتسليم الجوازين للسفارة السعودية هناك لم يجد مكانا في الطائرة فلم يسافر، كما أخبرنا بشيء أقلقنا وهو أن تذاكرنا التي كانت الخطوط السعودية قد أغلقتها على الشركة الإفريقية «إيرأفريك» لم تقبلها شركة طيران الكاميرون وإن الشركة الافريقية ليس لديها رحلة إلى «بانقي» عاصمة افريقية الوسطى إلا يوم الأحد على حين أننا لا نستطيع أن نضيع خمسة أيام في مدينة «دوالا» لو كنا نملك هذه الأيام لاسيما ونحن لدينا موعد قد ارتبطنا به لمقابلة رئيس جمهورية النيجر يوم الثلاثاء في عاصمة النيجر «نيامي».

فعدنا بسرعة إلى الفندق للاتصال بالسفارة السعودية وكنا تركنا رسالة هاتفية أمس للسفير الأخ عبدالرحمن العقيل بهذا الأمر فأردنا أن نخبره

أنه لم يمكن إرسال الجوازات فوجدنا هاتف الفندق قد تعطل. وكان المصعد أيضاً قد تعطل في هذا الصباح ورأيت طائفة من السياح يحملون أمتعتهم على ظهورهم ينزلون بها الدرج الطويل.

وذهب الشيخ الدكوري إلى الشركة الإفريقية لفتح التذاكر لتصبح صالحة للسفر إلى «بانقي» مع الخطوط الكاميرونية غداً الخميس، ولكن الموظفة قالت إن الشركة الكاميرونية لا تقبل ذلك لأنه ليس بينها وبين الشركة السعودية معاملات على اعتبار أن الكاميرونية ليست من الشركات الدولية فترك بطاقة امتياز كانت قد أعطته إياها إدارة الشركة الإفريقية الرئيسية عند الموظفة وطلب منها أن تسلمها لمدير الشركة بنفسه وهي «إيرأفريك» في «دوالا» لأنه لم يكن موجوداً وعاد اليَّ مسرعاً.

ووجدنا الأخ السفير عبدالرحمن العقيل جزاه الله خيراً قد أرسل رسالة (تلكسية) عاجلة وقال إنه منتظر الجواب يذكر فيها أنه أرسلها بسبب تعطل الهاتف في فندقنا وإنه يطلب جوابها الآن وفيها يقول: إنه سر بوصولي إلى الكاميرون ويتطلع إلى أن أزور العاصمة ياوندي لأطلع على أحوال المسلمين التي تحتاج إلى عناية عظيمة وإنه أولاً يطمع في أن أتكلم معه بالهاتف.

فكان أن خرجنا إلى فندق ميريديان واتصلنا بعد لأي بالسفير وأخبرناه بمشكلة سمة الدخول وعدم استطاعتنا ارسال الجوازين إليه في ياوندي. وكان شهماً كما عرفناه فقال: إن القوم يشددون في هذا الأمر، ولكنني سوف أعمل اللازم لكم فلا ترددوا وستجدون كل شيء أمامكم ممهداً في مطار بانقي، عاصمة إفريقية الوسطى رغم ضيق الوقت.

وقال: إنني سوف أذهب بنفسي الآن إلى سفير جمهورية إفريقية الوسطى وأطلب منه أن يرسل برقية عاجلة إلى حكومته لمنحكم التأشيرة في المطار كما سوف أتصل فوراً بالسفارة السودانية في «بانقي» لتتولى استقبالكم، وتسهيل دخولكم وان الشيء الذي آسف له أنني لم استطع اللقاء بكم لأشرح لكم أحوال المسلمين هنا التي لا يصح السكوت عليها، وما يتعرضون له من الدعوات الفاسدة فشكرته على ذلك كثيراً. وعدنا إلى الفندق، ونحن خائفون من أمر التذاكر وقد فاتنا الوقت الذي خصصناه للمرور على المساجد، ولم يحضر مدير الشركة الإفريقية إلى مكتبه.

في منطقة السوق :

هكذا يسمون المنطقة «منطقة السوق المركزي» ويسمي الحي «حي نافوي» وفيها يقع محل الأخ المالي (محمد يوروماما) وقد وجدنا السوق مزدحماً بالناس الذين هم من الإفريقيين الأصلاء وأكثر التجار والباعة فيها هم من السودان الغربي الذي يشمل مالي والسنغال والنيجر وشمال نيجيريا واكثر المشترين المتسوقين في هذه السوق هم من اهل البلاد الأصلاء الذين هم من سكان خط الاستواء. ولايرى المرء منا في هيئاتهم واشكالهم شيئاً من الوجاهة.

وتكثر فيه السيارات الصغيرة المارة ومنها عدد من سيارات الأجرة، والمتاجر خاصة بالسلع من كماليات وغيرها، إلا أن الملاحظ أن حالة السوق والحوانيت القريبة منه سيئة من حيث النظافة بل إن حواشي الشوارع قذرة والارصفة ليست بحالة جيدة.

حتى إنني رأيت محلا لبيع الدراجات النارية واصلاحها وقد اسودّ الرصيف الذى هو عليه كله من أثر الزيت المستعمل وغيره.

والجو حار رطب ثقيل شعرنا بوطأته منذ الصبح صداعاً في الرأس، وفتوراً في الجسم هذا مع العلم بأننا الآن في شهر يناير أشد أشهر السنة برداً في بلادنا ولكننا هنا تحت خط الاستواء، حيث لاشتاء ولا صيف ولا ليل يطول ولا نهار يقصر طول الدهر وإنما البرد يكون أوقات المطر وهو برد خفيف، والحر يكون عندما تشرق الشمس وهى حارة جداً وبخاصة اذا تخلف المطر كثيراً. ولكن الشدة ليست في مجرد الشعور بحرارة الشمس، وإنما في أشعتها التى تسقط رأسية فتؤذي من لم يتعودوا عليها وبخاصة من غير ذوي البشرة السوداء .

عدت الى الفندق وذهب رفيقى السفير الدكوري لمراجعة الشركة الافريقية من أجل التذكرة فوجد المدير في مكتبه ووعده خيراً في الصباح.

أما أنا فقد فسد برنامجى اليوم وجلست في مقهاة على الرصيف غير بعيدة من الفندق وقد كثر الناس في الشارع عند الساعة الخامسة عصراً، وظهرت طوائف من نساء أهل البلاد الاصليين. وقد قلد بعضهن الأوربيات وهن الاقل، ولكن أشكالهن وهن على هذا التقليد الاعمى مما يصد عن النظر، ويبعدهن عن الفكر، وقيل لي إنهن يحاولن ان يجلبن انتباه الناس إليهن بهذا اللباس الذي يشبه لباس بغايا باريس بعضه ضيق جداً وبعضه يبرز جزءاً كبيراً من الجسم ربما اذا ارتدته الباريسية كان لها مما تزعمه من مظهر بشرتها ما يبرر لبسه وأما هؤلاء المقلدات فإن ستر البشرة عند اكثرهن من الجمال.

وقد مر أمام المقهاة عدد من الأوربيات اكثرهن من الفرنسيات وقد بدين بألوان اكثر اشراقاً واذواق ارقى مذاقا مما كن عليه في الحقيقة وأما السودانيات اللائى نسميهن في بلادنا بالتكرونيات فانهن هنا يبدين أيضا على جانب كبير من الوجاهة والجمال بالنسبة لهؤلاء الاستوائيات.

والسودانيات منسوبات للسودان الغربي وهناك قلة قليلة جداً من الخلاسيين، وهم المهجنون كما يسميهم بعض الناس أو الكاباتشينو كما يصفهم الايطاليون ويريدون بذلك القهوة باللبن وهم المولودون بين البيض والسود والوانهم خلاسية أو بنية أو نحاسية. ولكن أشكالهم وتقاسيم وجوههم ليس فيها من الوجاهة شيء فيما نراهم فيهم.

واما معاملة الناس من أصلاء ودخلاء هنا فإنها غاية في الود، وحسن الحديث واحترام الضيوف من الاجانب وبخاصة من يسمونهم البيض أمثالنا وهم في هذا الامر أرقى من كثير من البلاد التى تدعي التقدم في آسيا وإفريقية. وقد عرفنا ان الامن جيد وان الانتهاب قليل والسرقة ليست متفشية إذا ما أخذ المرء بالإحتياط المعتاد. حتى الباعة الجائلون لايلحون على الغريب وسائر الباعة لاتراهم يحاولون ان يبتزوا مالك كأن يزيد عليك سائق سيارة الأجرة اكثر من أهل البلاد.

يترحمون على الرئيس السابق:

رئيس الكاميرون الذى قاد البلاد منذ الاستقلال حتى عهد قريب هو (أحمد أهيجو) المسلم الذي لم يكن يعمل للاسلام أو لا يتظاهر بذلك حرصاً على منصبه واظهار الحياد بين المسلمين والمسيحيين، وإن كان يقرب بعض المسلمين بحكم قربه منهم ومعرفته لهم. وقد

حكم البلاد بعد الاستقلال وعدد المسلمين أقل من غيرهم في جزء الكاميرون الشمالي الذي كان مستعمرة بريطانية والجنوبى الذى كانت تحكمه أو تملكه فرنسا.

وقد زاد عدد المسلمين الآن، ولكنه تخلى عن الحكم طواعية ودون إكراه فيما أعلن وقيل. ولكن الذين يعرفون بواطن الأمور هنا قالوا: إنما كانت مؤمراة انطلت عليه وعلى انصاره، وملخصها انهم اوهموه بموجب تقرير طبي أنه مصاب بالسرطان الميؤس من شفائه وأن عليه ان يتخلى عن الحكم في حياته لنائبه المسيحي (بول بيا)لئلا يحصل الشقاق والخلاف بين السياسيين من مسلمين ومسيحيين بعد وفاته فيكون في ذلك الخراب للبلاد والبلاء للعباد، وربما يتعرض استقلال البلاد الذى ناضل من أجله، ثم حرص على صيانته السنين الطوال، لخطر الإضطراب أوالزوال.

قالوا فاستقال بالفعل ولكنه بعد أن أمعن في إجراء الفحوصات وخرج الامر من يده عرف أن الداء القاتل عنه بعيد.

وكنت قد عرفته هادىء الطبع، رزين الحركات عندما اجتمعت به في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة أثناء إحدى زياراته للمملكة وكنت آنذاك الأمين العام للجامعة، وأعلى موظف فيها رتبة عندما زار الجامعة اذ كان رئيس الجامعة غائبا. وقد قيل لنا: إن من أهم خلائقه التى عرف بها في بلاده محبته للهدوء ومجاملة الآخرين ولو على حساب مايراه المصلحة العامة. وانه قد أثرى ثراء عريضاً حتى قدر بعضهم ثروته عندما ترك الحكم بعشرات الملايين من الدولارات هكذا قيل لنا والله أعلم بحقيقة الحال.

واليوم بعد أن مضى على تخليه عن الرئاسة مدة جرب الناس خلالها من حكم بعده وجربوا من كان حوله فإنهم مسيحييهم ومسلميهم اخذوا يترحمون على الرئيس (أحمد أهيجو) وعلى عهده. فقد ساءت الادارة وأهملت المرافق العامة ورأينا شواهد ذلك في الشوارع والحدائق وذلك رغم غنى البلاد وعائداتها من النفط والبن والاخشاب وغيرها.

ولقد حاول بعض المسلمين الثورة على الحاكم الجديد فأمعن فيهم بطشاً وتنكيلا مع أن الثروة النفطية التى تنعم البلاد بخيراتها، وتميزها عن البلاد الإفريقية القريبة منها التى لا يوجد فيها النفط هي في الاقليم الشمالى: بلاد المسلمين بل لقد اتسمت فترة من العهد الاخير بانها فترة اضطهاد النابهين من المسلمين من الضباط والمتعلمين وغيرهم وقد وجد بعض الحاقدين من المستعمرين السابقين وغيرهم من الحاقدين على الاسلام حتى بعض اليهود فرصة للتدخل في شئون البلاد ومنع المسلمين النابهين من شغل المراكز المهمة في الدولة .

وفي المساء كان العشاء في مطعم إفريقى خالص يملكه ويديره طائفة من الافريقيين الذين هم على جانب من الوعي الصحى والنظافة في الأدوات فقد جاءوا الينا عندما عرفوا أننا من الأجانب وتحدثوا عن الطعام وكان العشاء فاخراً واهم ما فيه نوع جيد كبير من (الاءربيان) الذى نسميه في بلادنا بالروبيان ويسميه اخواننا المصريون بالجمبرى ويسمى بالبرتغالية وغيرها من اللغات اللاتينية بالكامرون مما جعلنا نتسآءل عن العلاقة ما بين اسم هذه البلاد (الكاميرون) وبين اسم هذا الاءربيان (الكامرون) وهناك ايضاً نوع محلى من السمك النهرى الجيد. إلا أن الوجبة كانت غالية بلغت تسعة آلاف فرنك للشخص الواحد ويساوى ذلك عشرين دولاراً امريكياً.

يوم الخميس ١٤٠٥/٤/٢٦هـ ١٩٨٥/١/١٧م.

بكرنا بالذهاب إلى الشركة الإفريقية فوجدناهم قد قرروا أن يعملوا عملاً طيباً وهو ان يبدلوا تذكرة السعودية من دوالا إلى (بانقي) بتذكرة مماثلة لها بالدرجة الاولى صادرة من شركتهم (إير أفريك) حتى لا تتردد الشركة الكاميرونية في قبولها. فبقينا عندهم فترة من الوقت حتى اكدوا ذلك، وليس في هذا المكتب أى شى من الالآت الحاسبة مما يسهل العمل، وإنما كانت فيه موظفة إفريقية تعمل كل شيء بيدها، وقد تنفسنا الصعداء حينما انهت ذلك وقالت: إنها وضعت الحجز على التذكرتين بالدرجة الاولى .

إلى المسجد العتيق

وقد يسميه بعضهم بالمسجد الجامع فقط. اخترقنا قبل الوصول إليه حياً جيداً اسمه (بالي) يقع في ضاحية من المدينة جميع البيوت فيه لها حدائق تظلها الاشجار الباسقة، مما يدل على قدم هذا الحي. إلا إذا كانت هذه الاشجار جزءاًمن غابة قديمة كانت موجودة قبل البناء فيه. وشوارع هذا الحي كلها جيدة الزفلتة.

ووصلنا إلى السوق المركزي الذي كنا قد قربنا منه أمس، ولم ندخله لان المسجد الجامع يوجد قريباً منه. وقد دلنا على وجود المسجد(بسطات) أى بضائع مبسوطة على الأرض أو موضوعة على بساط أو فراش فيها وهى فوق الرصيف الذى يقع عليه حائط المسجد وجميع الباعة فيه من المسلمين تدل على ذلك هيئاتهم وأظهرها واكثرها وضوحاً القمص العربيةـــ جمع قميص وهي الطويلة مثل القمص التى عندنا في المملكة، والطواقي جمع طاقية ـــ وهو القلانس على الرؤوس.

وقد انتظموا في صفوف كأنما نظموا فيها تنظيماً فهناك صف طويل جداً كل الذين فيه يبيعون بضاعة واحدة وهي الاحذية والمصنوعات الجلدية مع العلم بانهم كلهم ليسوا في حوانيت حتى ولا خشبية، وانما جلسوا في ظل حائط الجامع الذى تحف به اشجار غير ملتصقة، ولكن الوقت الآن في الصباح ولم ترتفع الشمس في قمة السماء فتنزل أشعتها عمودية على الرؤس.

وبعض الحقائب الجلدية ثمينة من جلود التماسيح أو الحيات ويسمون الحية أصلة وهى تسمية عربية فصيحة.

ثم صف آخر من الباعة الذين اكثرهم من المسلمين المتقدمين في السن بخلاف الذين قبلهم وليس في هؤلاء الباعة امرأة بل كلهم رجال وهذا الصف الأخير بضاعة الجالسين فيه انواع منوعة من الأدوية الشعبية منها ماهو معروف لدى مرافقيّ لانهم من السودانيين الغربيين ومنها ما هو غير معروف إلا لأهله، أو المتعاملين معهم وهى أعشاب منوعة يابسة، ومساحيق ملونة، ومنها كسر صغيرة من الخشب قال البائع إنها تنفع للزكام ثم أبرز دواء آخر موضوعا في قرطاس، وقال هذا لكذا وغلبه الحياء فلم يكمل عبارته فتبرع أحد الطفيلين الواقفين بإكمالها فقال: إنه نافع للباه.

وأكثر الباعة يعرفون العربية أو شيئاً منها قالوا: لأننا من تشاد وبعضهم من شمال الكاميرون وكلا الاقليمين تشيع فيه اللغة العربية، بل تعتبر العربية هي اللغة الوحيدة المشتركة في الفهم بين الناس فهم يتفاهمون بها فيما بينهم هناك.

في المسجد العتيق.

دخلنا المسجد الجامع من باب خلفي يفضي الى فناء واسع جداً قد ظللوه بسقف من الصفيح قائم على اعمدة دقيقة جداً من الاسمنت المسلح. وقد جعلوه كذلك بمثابة الزيادة في الجامع حتى يتسع للمصلين الكثر يوم الجمعة، وأعتقد أن الفناء الخارجى هذا وحده يتسع لحوالى الفي مصلٍ. ومن لطيف ما شاهدنا في جانب هذا الفناء لافتة بالعربية نصها: **المعهد الإسلامى الثقافي لمسجد الجامع**. وفوق ذلك بالعربية ايضاً: بسم الله الرحمن الرحيم «طلب العلم من المهد إلى اللحد لله و«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» وجملة أخرى ربما كان اصلها بيتا من الشعر المحرف كتبوها في سطر واحد وهي: «العلم باجتهاد. لكن أوله مر» وتحت ذلك بحرف أصغر :..بخط المدير المعهد الحاج فاروق سي..

ومن هذا الفناء الذى هو مبلط بالاسمنت ولم يكمل تبليطه إذ لايزال عمال يعملون في تبليط جزء منه قصدنا المصلى الرئيسي فوجدنا بابه مغلقاً ولم نجد من لديه المفتاح ، وهنا رآنا احد الاخوة المسلمين فأخبرنا ان هذا الفناء الواسع كله زيادة في المسجد، وقال: إن السبب في ذلك هو زيادة المسلمين هنا زيادة كبيرة فهم يأتون من شمال الكاميرون الذي اغلبيته مسلمة ومن تشاد، وبعض المواطنين الاصلاء من الأفارقة يدخلون في الإسلام وهنا ذكرت قولة للأخ (محمد يورو ماما) الثري المالي وهو أنه كان المسلمون في القديم موجودون في شمال الكاميرون فقط وكانوا قلة في الجنوب والآن حصل الامتزاج فكثر المسلمون في الجنوب، وكثر المسيحيون في الشمال نتيجة لتوحيد البلاد وإنتقال المواطنين من جهة الى اخرى.

ورجعت لتأمل المسجد من الخارج وصورت منارته التى هى ظاهرة في هذا القسم المهم من قلب المدينة الشعبي التجارى كما صورته من الداخل غير أن

الشريط الذى فيه الصورتان فسد بسبب عطل في المصورة ولم أستطع التجول أكثر من ذلك لأن أشعة الشمس حارة شعرنا بوقعها على رؤسنا وأجسامنا أنا ورفيقى السفير الدكوري، فعدنا الى الفندق.

مغادرة الكاميرون:

كان موعد السفر إلى (بانقي) عاصمة جمهورية إفريقية الوسطي بعد الرابعة لذلك خرجنا الى المطار في الثانية والنصف، وكان من الملفت للنظر أننا وجدنا تفتيش أمتعة المسافرين يتم بالالآت الكبيرة المعتادة التي تصور الأمتعة وهى تمر بها فوق سير يتحرك بالكهرباء إلا انهم هنا كتبوا إعلانا بالفرنسية والإنجليزية يقول: إن هذه الاشعة تضر بالمصورات (آلآت التصوير) وأشرطته (الأفلام) وكان معي في الحقيبة الكبيرة أشرطة عدة ويؤذى فتحها غير ان الجواز السياسى أعفانا من ذلك إذ سمحوا بجميع أمتعتنا بالدخول دون تصوير.

ووزن موظف الترحيل أمتعتنا قبل غيرنا لأن الشيخ الدكوري يحمل كما قلت ـــ بطاقة امتياز من الشركة الإفريقية (إيرأفريك) ولكن ذلك لم ينفعنا إذ قال الموظف: إن عليكم الانتظار لأننا لانعرف ما اذا كان يوجد لكم مقاعد بالدرجة الأولى.

وبعد انتظار ممل أخبرنا بعدم إمكانية ركوبنا في الأولى فختم تذاكرنا بعد أن كتب عليها ذلك وقال يمكنكم أن تستعيدوا الفرق من الخطوط السعودية.

(إلى جمهورية إفريقية الوسطى)

من دوالا الى بانقي :

صعدنا إلى طائرة خطوط الكاميرون في الرابعة والنصف عصراً وظلت الطائرة واقفة وهي مليئة بالركاب مدة ساعة إلا ربعاً تعطل التكييف فيها فلقينا من ذلك عناء وهي من طراز بوينج ٧٠٧ وقد اعتذر الطيار عن هذا التأخر ولم يبين سببه أما الركاب فانهم خليط من السود والبيض ثلثاهم من السود وثلثهم من البيض السياح وتعرفنا على أخ من موريتانيا في الطائرة صديق لرفيقي السيد الذكوري وهو (محمد محمود ولد دي) وزير الاقتصاد والمعادن وعضو المجلس العسكرى في موريتانيا.

والطائرة أثاثها متوسط وأما المضيفات وهن الوطنيات الكاميرونيات فهن من (المستورات) وليس المراد بذلك المستورات عن العيون فذلك لا مكان له من تفكيرهن فضلاً عن فعلهن، وانما المراد بذلك أنهن ممن لم يرزقن حظاً كبيراً من الجمال. وملامحهن تدل على أنهن من جنوب البلاد وأما شمال الكاميرون فان فيه من الجميلات من ينافس جميلات إفريقية ناهيك بالفلانيات الرشيقات!

نهضت الطائرة وهى تزمجر فوق المستنقعات القريبة من العاصمة ثم ارتفعت فوق الغابات وقد آنست منها صوتاً منكراً في الزمجرة وخشيت أن يكون صوتها لخراب فيها. ولكن الله سلم إلا أن المزعج أن الصوت يسمع بقوة من داخل الطائرة وكأنها الطائرة المروحية مما يدل على أن عازل الصوت من داخل الطائرة لا يعمل.

ثم بدت الغابات الكثيفة المطبقة وبينها يتلوى النهر الذي رأيته عند القدوم ولمنظر مياه هذا النهر الغزيرة وسط الغابات المظلمة معنى في النفس في هذه الفترة التي تشكو فيها أكثر أجزاء القارة الافريقية الغربية

من الجدب والمحل وانحباس المطر فيما يسميه عوام الكتاب بالجفاف، وبخاصة أن الطائرة عندما ارتفعت كثيراً لكي تستوي في الجو منعت ابخرة المياه المتصاعدة من هذه المنطقة المشبعة بالمياه رؤية الأرض والاشجار بوضوح، وتضافرت معها قطع خفيفة من الغيوم فاغلقت النظر تماماً فصرنا ننظر إلى داخل الطائرة وأهم مافيه الكاميرونيات (المستورات) يسعين في تقديم ضيافة خفيفة بل طفيفة لا تزيد على (شطيرة) صغيرة وكأس من الشراب مع أن الوقت يقارب السادسة ومدة الرحلة تصل إلى ساعة ونصف كما سمعنا خارج الطائرة وإلا فإنهم في اعلان الطائرة لم يذكروا المسافة لها بالفرنسية التي هي الأولى هنا ولا بالانكليزية.

وبعد ساعة من الطيران بدأت زمجرة الطائرة تخف قليلا مما يدل على أنها بدأت التدني إلى الأرض شيئاً فشيئاً غير أن المنظر كان الظلام الدامس لأننا وان كنا ذاهبين الى بلدة لايتغير فيها توقيت الساعة عن الكاميرون فإنها واقعة شرقا منها وهي (بانقي)، ولم أر في هذه المنطقة التي هي منطقة غابات استوائية كثيفة أية أنوار تدل على العمارة مما يعني أن هذا القسم غير معمور عمارة مزدهرة. ثم شاهدنا قرب المطار أنواراً خافتة ضئيلة.

في مطار بانقي

كانت أنوار المطار نفسه ضعيفة لا تدل على الثراء ولا على الازدهار أو هذا هو ماتبادر إلى ذهنى والطائرة تقبل وهي عجلى إليه، ثم نزلت الطائرة فيه نزولا خشناً بحيث قفزت إلى الامام وهي تتمايل قبل ان تستقر على المدرج وبدا لي أن فيها خللاً ولم اسمع بشيء من ذلك،

إلا أنني عرفت بعد ذلك أنها لم تستطع العودة إلى الكاميرون كما كان مقرراً لها في تلك الليلة وكاد ينقضى نهار الغد وهى جاثمة على أرض المطار تنتظر الاصلاح ثم الصلاح، وكان نزولها في السادسة والثلث بتوقيت دوالا الذى هو التوقيت نفسه لبانقي بل لجمهورية إفريقية الوسطى كلها.

وجدنا مندوباً من السفارة السودانية ينتظرنا عند سلم الطائرة وهو الأخ (دفع الله الحاج علي عثمان) (سكرتير) السفارة، والمسئول فيها عن الشئون الثقافية ومنها الأمور الإسلامية. فرحب بنا وهو يعتذر بأن البرقية وصلت متأخرة من «ياوندى» عاصمة الكاميرون وإلا لكنا وجدنا مستقبلين كثراً في المطار وقال لنا الأخ إن السفير يبلغكم تحياته ويعتذر بإنشغاله مع وفد السودان الذى يرأسه الوزير(أديل ألير).

دخلنا إلى غرفة كبار الزوار في المطار أو (صالون الشرف) كما يسميها عوام الكتاب وأردنا المبادرة إلى الجلوس على بعض المقاعد الخالية في صدر الغرفة فأخبرنا الموظف المسئول أنها محجوزة لعدد من الوزراء بعضهم مسافر وبعضهم قادم. واخبرونا أن في البلاد مؤتمراً للنقل والمواصلات في دول وسط إفريقية من شرقها إلى غربها جاءوا لبحث الطريق القاري الذى يربط بين شرقى القارة عند مدينة (ممباسا) كما تعرف الآن أو (منبسه) كما سماها إبن بطوطه وهي واقعة على البحر الزنجى وإن كان عوام الكتاب يسمون هذا البحر المحيط الهندى وليس هو من الهند بقريب. ويريد المؤتمرون ان يمتد هذا الطريق القاري ليصل إلى أحد موانيء غرب إفريقية الغربية على البحر المحيط الأعظم كما كان أسلافنا يسمون المحيط الأطلسي ويرأس هذا المؤتمر

السودان ويمثله فيه الوزير (أديل الير) من الاقليم الجنوبي.

ذهب الأخ (دفع الله) يسعى في الحصول على سمة الدخول بعد أن كان أخبرنا أنه عندما اتصل بوزارة الخارجية في إفريقية الوسطى طالباً إصدار أمرهم الى المطار بذلك وأخبرهم أننا في مهمة إسلامية لم يفهموا الأمر على وجهه وقالوا: كيف يكون وفد من (الدبلوماسيين) نظرا الى جوازينا السياسيين أحدهما مالى والآخر سعودي ــ يأتون في مهمة إسلامية ولم يكن لحكومة (إفريقية الوسطى) علم مسبق بذلك. قال: إلا أن القوم طيبون وقد أخبرنى مدير المطار أنه سيمنحنا لكم (التأشيرة المطلوبة.

ظللت واقفاً أحمل بيدي حقيبتي اليدوية فرأيت مقعداً خاليا في وسط القاعة أى في غير المكان الذي ذكروا أنه محجوز للوزراء وليس بقربه ما يدل على أن أحداً كان يجلس عليه من متاع أو نحوه فجلست فيه أستريح.

ولم اكد افعل ذلك حتى أقبل إفريقي قصير يرتدى بدلة كاملة مع رباط العنق رغم الحر وقال لي بالانكليزية: هذا مكاني ألم تعرف بذلك؟ لَمَ تجلس عليه؟ فقلت له: إنني لم أعرف ذلك ، ويمكنك أن تتفضل بالجلوس فيه وقمت عنه فجلس فيه، وقد أخبروني بعد ذلك أنه نائب وزير في أحد الوفود الى هذا المؤتمر .

وقد شغل الوزراء الأفارقة أكثر المقاعد في القاعة بالفعل ومنهم وزراء النقل والمواصلات في نيجيريا والكاميرون واوغندا وغيرهم إضافة إلى الوزير الموريتاني وقد تجلت البساطة وعدم التكلف في تصرفاتهم ما عدا التمسك باللباس الإفرنجي الكامل في هذا الجو الحار، وشيء من

الاستعلاء على من دونهم من الموظفين الإفريقيين، ثم حضرت موظفة من المراسم قال الاخ السوداني: إنها جاءت تسعى في أمركم وقال يحدثنا عن مدينة (بانقي) في هذه الايام: إنه لاتوجد غرف خالية في الفنادق المناسبة وقد بحثنا عن أمكنة لبعض السودانيين فلم نجد وذلك لمناسبة انعقاد مؤتمر الطريق القاري، ولذلك فانني أدعوكم لتقضوا الليلة معي في بيتي، وغدا نسعى في البحث عن غرف لكم في الفنادق، فشكرناه على دعوته وطلبنا منه ان يحاول البحث عن فندق في هذه الليلة فقال: إنه متأكد مما قاله.

وكنت أتامل هذه الغرفة الصغيرة فأجد فيها صورة كبيرة لفرانسوا ميتران رئيس فرنسا تقابلها صورة كبيرة أيضاً لرئيس جمهورية إفريقية الوسطى وهو (كولين با). مما يدل على متانة العلاقات بين البلدين وبخاصة إذ تذكر المرء أن هناك قاعدة فرنسية مهمة في هذه البلاد، ومنها انطلقت القوات الفرنسية إلى (تشاد) بعد دخول القوات الليبية إلى شمال تشاد.

في مدينة بانقي :

إسمها قبلي إفريقى قديم وكذلك اسم النهر الذى تقع عليه المدينة وهو (اوبانقي) ولذلك لا مجال لتعليل التسمية.

انطلق الأخ السوداني (دفع الله) الذى دفع الله به عنا الارتباك والإضطراب فيما لو لم نجده، وحاولنا الدخول بدون تأشيرة مسبقة ولم يكن معه بسيارته غيرنا فسار مع شارع واسع قال: إنه صار كذلك لأنه كان مدرج المطار القديم لذلك ابقوه على سعته.

وسرنا قليلاً فبدأت المدينة على هذا الشارع الواسع الذى تقع عليه عدة وزارات اهمها الخارجية .. إلى جانب (جامعة بانقي) ومبنى الاذاعة والتلفزة والمبنى يضمهما معاً وهو ليس كبيراً ولكن هذه البلاد قليلة السكان محدودة الأهداف في الوقت الحاضر لذلك لاتحتاج إلى إذاعة كبيرة ولا إلى تلفزة واسعة إذ لايزيد عدد سكانها الاصلاء على مليونى نسمة إن بلغوا هذا الرقم لان بعض الناس يقول إنهم يقلون عنه قليلًا، ومررنا بعد ذلك بمدرسة الشهداء سميت بذلك على اسم الطلبة الذين تظاهروا ضد الرئيس الفارط الذي سمى نفسه الامبراطور بوكاسا فأمر بضربهم بالنار ومات عدد منهم وسموهم بعده (لماريتر) يعنى الشهداء بالفرنسية، ثم دخلنا إلى شارع هام جيد واسع إسمه (بوغندا بان بولينو) على اسم أحد زعماء البلاد ويقولون هنا إنه الذي جاء بالاستقلال والحرية أو المحرر من الحكم الفرنسي الذي يراد به الحكم المباشر وإلا فان الفرنسيين الآن لهم وضع مميز في البلاد، وقال أحد الوطنيين بعد ذلك إن الزعيم (بوغندا) هو الذي حرر البلاد بالصراع الفكرى مع الفرنسيين.

ودخلنا إلى فناء مكشوف يحيط ببناء متعدد الطوابق (عمارة) قال الاخ الكريم (دفع الله) إن هذا بيتى، إنه شقة في هذه العمارة وانني وحيد فيه الآن لأن زوجتي ذهبت في زيارة لأهلها في السودان لذلك رأيت أن تقضوا هذه الليلة عندي.

مطعم ألبان جديد

استرحنا في بيت الأخ (دفع الله) قليلاً وشربنا شراباً أكلنا معه من الحبوب المضادة لحمى الملاريا المستوطنة في هذه المنطقة وقال الأخ

دفع الله إنه مواظب على أكل ثلاث حبات مرة واحدة كل اسبوعين ثم ركبنا السيارة معه حيث أخذنا لنتعشى في مطعم لبنانى في الحى الراقي من المدينة ولكننا وجدنا المطعم مزدحماً، وقال إنه يزدحم في كثير من الأحيان وفي هذه الليلة بالذات لديه حفلة خاصة.

فتركنا المطعم اللبناني والحي الراقي من المدينة خارجين من قلب البلدة إلى حي للمسلمين بمعنى أن اغلب السكان فيه من المسلمين المغتربين الذين هم من تشاد والسنغال ومالي والكاميرون وقليل من السودانيين الشرقيين وقلنا الشرقيين تمييزاً لهم عن سكان السودان الغربي الذى كان يحمل التسمية التاريخية العريقة (السودان) وهو مالي والسنغال والنيجر وشمال نيجيريا.وقال الأخ السودانى: إن في هذا الحي مطاعم سودانية شعبية وسوف أريكم ما اذا كنتم تستسيغون الأكل فيها: فقلت له: نعم وشكراً.

دخلنا مطعماً أثاثه وبناؤه دون المتوسط وكذلك ثياب العاملين فيه ولكن اكثر الذين يأكلون فيه يتحدثون العربية بل إن الذين يدخلون ويخرجون منه يتكلمون بالعربية لأن اكثرهم من المهاجرين من تشاد واللغة العامة في تشاد التي يتفاهم بها الناس فيما بينهم هناك هى اللغة العربية كما هو معروف وإن كان ذلك مقتصراً على لهجة خاصة من العربية هى مزيج من اللهجة السودانية مع كلمات من اللهجة النجدية وصلت اليهم عن طريق الأعراب الذين يسكنون في جنوب ليبيا مثل كلمة (بالحيل) بمعنى كثير أوجداً .

وجاء صاحب المطعم مرحبا بعد أن أخبره الأخ (دفع الله) بنا وهو سودانى شرقي أصيل لم تغير الغربة من سودانيته شيئا واسمه (محمد

الكذك) وقد أخذ يغير الأواني والشوك ويقترح أكلا معيناً فاتفقنا على أكل اللحم مع الارز وقال الأخ «دفع الله» إنه شبيه بالكبسة الموجودة لديكم في المملكة السعودية. وكان الطعام جيدا الا أن نظافة ماحولك وانت تأكل ليست مما اعتدنا عليه بل هي دون ذلك وكان غريباً بالنسبة إليَّ أن أجد مطعماً كل من فيه يتكلمون العربية في هذه العاصمة التي كنت أعتبر أنها بعيدة عن بلادنا العربية وإنْ تكن قريبة من بلاد أخرى للعربية في إفريقية الفتية إلا أن الأغرب من ذلك هو اسم المطعم وهو (المطعم البان جديد) ولم افهم معناه أول الامر حتى أوضحه الأخ (دفع الله) فهو المطعم اللي ــ الذي ــ بان جديداً ــ أي الذي ظهر حديثاً والمعنى العام للاسم هو (المطعم الحديث)؛ وهذه الجملة ربما تعطي مثلا على اللهجة العربية الغريبة هنا.

ثم عدنا إلى بيت الأخ (دفع الله) الذي يقع كما قلت في شقة في بناء تملكه شركة (صندوق البن) وأجرته الشهرية مائة وثمانون ألف فرنك إفريقي غربي وهو على شارع بوغندا الذي هو الشارع الرئيسي في داخل المدينة بل هو أفضل شارع طولا وسعة في داخلها وعليه تقع السفاراتان المغربية والمصرية. وبتنا في بيت الأخ السوداني (دفع الله) جزاه الله خيراً.

يوم الجمعة ١٤٠٥/٤/٢٧هـ ١٩٨٥/١/١٨م.

البحث عن فندق :

ألح اخونا الاستاذ (دفع الله) على أن نصحبه إلى مكتبه في السفارة السودانية ليجري الاتصال بالفنادق بالهاتف بدلاً من المرور بها جميعاً لانه عرف من اتصالاته أمس عدم وجود غرف خالية في الفنادق

الجيدة. ولكنني ألححت عليه في أن نمر بأحد الفنادق اولاً فانطلقنا مع شارع (بوغندا) الرئيسى قاصدين جهة شاطيء النهر الذي تقع عليه المدينة وهو نهر (اوبانقي).

الوجود العربي في بانقي :

مررنا ببنائين (عمارتين) متقابلتين على جانبي شارع (بوغندا) الرئيسي الهام قال الأخ (دفع الله): إن هذه وأشار إلى إحداهما لأحد الاخوة اليمانيين ـــ والثانية لأخ آخر من أهل اليمن. ويقعان بجانب السوق المركزي للمدينة.

ثم أشار بعد ذلك إلى بناية كبيرة وقال: هنا ايضاً يوجد مستشفى خاص راقٍ جداً لأحد الاخوة اللبنانيين هو الدكتور (شعيب) وهو من أرقى المستشفيات في مدينة (بانقي) وأغلاها وهو مزود بالأجهزة الطبية الحديثة وفيه اطباء ممتازون .

فندق الصخرة :

وقفنا عند فندق كتب عليه اسمه (روك هوتيل) وليس فيه مما يعنيه هذا الأسم الذي قد يوحي بالصخرة الجرداء إلا مقابلته لهضبة خضراء تحيط بها الخضرة الشاملة وتتربع على قمتها قلعة فرنسية، وأسفل من ذلك في سفوح هذه التلة تقع السفارة الفرنسية أهم السفارات الأجنبية في البلاد، وحيدة لا يشاركها السكنى في هذه المنطقة الجميلة أحد، ولا يجاورها منزل آخر الى مسافات محيطة بها بعيدة وإلا فإن هذا الفندق واقع في منطقة خضراء على ضفة نهر (أوبانقي) مباشرة. وجدنا في مكتب الاستقبال في الفندق فتى كلمه الأخ (دفع الله) بالعربية مع أن الاخ دفع الله يعرف الفرنسية والانكليزية وقال لنا: هذا الشاب هو الأخ

أحمد يعرف العربية كان يعمل لبعض الوقت في السفارة السودانية وقال الفتى بالعربية بعد ان شاور واحداً معه في الاستقبال إنه لا توجد غرف الآن ولكن يمكن ان توجد في الساعة العاشرة ونجتهد في أن يكون ذلك قبل ذلك ولكنها مضمونة فأودعناه الأمتعة وودعنا الاخ دفع الله شاكرين.

وقضينا الوقت في حديقة للفندق تقع مباشرة في مكان مرتفع من ضفة نهر (أوبانقي) تليها ضفة النهر رملية نقية ليس فيها ما يكدرها إلا بقايا ما تبيعه بائعات إفريقيات أظنهن من التكرونيات اللائى يتفوقن في المهارة على نساء أهل هذه البلاد الاستوائية الأصيلات، بل ويتفوقن تجاريا حتى على رجال أهل هذه البلاد.

حدود زايير كما ترى من ضفة نهر أوبانقي في بانقي

على ضفة النهر

تناولنا الشاي في حديقة الفندق الظليلة بأشجارها الباسقة وموائدها المرتبة وجوها المعتدل في هذا الصباح ونحن في الضفة الشمالية التي تقع عليها مدينة بانقي وتقابلنا حدود (زايير) التي كانت تسمى قبل ذلك كنقو كنشاسا وقبله كنقو ليوبولد فيل، وقبل ذلك كله كانت تعرف في زمن الاستعمار بالكنقو البلجيكي.

وموقع هذا الفندق من النهر الذي يمر بهذه المدينة ذكرني بموقع فندق مماثل فوق نهر مماثل هو الفندق الرئيسى في مدينة انجامينا عاصمة تشاد الذي يقع على نهر شارى في الضفة الشمالية منه تقابله في الضفة الجنوبية جمهورية الكاميرون غير أن الضفتين الجنوبيتين هنا وهناك مختلفتان فهي هنا ضفة زايير المضطربة وهي خضراء ذات تلال غير عالية ولكنها مجللة بالخضرة وهي هناك ضفة شمال الكاميرون المستقر وهي ذات أرض شبه مستوية ذات مظهر صحراوى جاف.

وكان المنظر شيقاً، وبجانبه مناظر صيادى الاسماك الوطنيين الذين يجدفون بقوارب صغيرة مستطيلة كأنها القوارب القديمة التي تنحت من الاخشاب الكبيرة وتكون من خشبة واحدة وهى تشبه على البعد البط التي مدت أعناقها، وفوقها هؤلاء الصيادون الإفريقيون الذين تخففوا من اللباس الا مايستر العورة المغلظة.

جانب من شاطىء نهر أوبانقي

والنهر ليس عريضاً هنا، وأظنه ليس بعميق أيضاً مع أنني رأيت عبَّارة تأتي من الضفة الجنوبية تحمل السيارات والناس ولكن ذلك لمدة قصيرة إذ هذه المنطقة من زايير بعيدة عن المدن الكبيرة وهي منطقة غابات، وقد ذكرني هذا المنظر أيضا بمنظر مماثل أيضا ولكنه قريب من عاصمة زايير ترى منه كنشاسا عاصمة زايير في الضفة الجنوبية من نهر آخر هو نهر الكنقو والمنظر من الفندق الرئيسي الواقع على الضفة الشمالية من نهر الكنقو نفسه في مدينة برازافيل عاصمة جمهورية الكنقو.

والفارق الواضح بين الموضعين في الضفتين هو تفاوت حجم النهرين (أوبانقي) هنا ونهر الكنقو هناك.

وعندما ذهبنا لاستطلاع أمر الغرف ووقفنا عند الباب الخارجى

للفندق كانت اعداد السائلين الملحفين (الشحاذين) يرددون جملاً لا توجه إلا للمسلمين مثل (كرامة جمعه) و (جمعه في سبيل الله) وذلك أن اليوم هو يوم الجمعة ويعلمون بالتجربة أن المسلمين يتصدقون فيه لفضله وإلا فإن هؤلاء السائلين هم في أغلبهم من غير المسلمين .

سكنا في هذا الفندق في غرف تطل على النهر وتكاد تلمس منها حدود زايير بعده ، والمهم أنه يعج بالحياة التى مصدر أكثرها هم صيادو السمك البسطاء من هذا النهر ومع أنه معتبر عندهم من الفنادق الراقية ولذلك أنزلوا فيه ضيوف الدولة الكبار ومنهم الوزير الموريتاني الذي قدم معنا والوزير السوداني الذي كان قد قدم قبل ذلك إضافة إلى وزراء أفارقة آخرين فإنه في معرفتي الواسعة بالفنادق لا يصل إلى درجة فنادق الدرجة الأولى فضلا عن الدرجة الفاخرة إلا في جمال موقعه، وترتيب حديقته ومع ذلك فان القائمات على شئون الغرف فيه هن من الفرنسيات البيضاوات وأجرته رخيصة جداً اذا قيست بموقعه على هذا النهر وهي أربعة عشر الف فرنك افريقى غربى ويساوى ذلك حوالي تسعين ريالا سعوديا. وفيه مافي فنادق الدرجة الأولى ماعدا الثلاجة في الغرفة والهاتف الذى يتصل آليا بالخارج.

في الجامع الكبير

ذهبنا مع الأخ (صلاح البارودي) من السفارة السودانية بسيارته لاداء صلاة الجمعة في أحد المساجد الكبيرة الرئيسية هنا ويقع في منطقة سكنى المسلمين في العاصمة في حي اسمه حي (كيلو خمسة) أكثر سكانه من المسلمين من السودان الغربي والكاميرون ونيجيريا فرأينا في طريقنا غنما من الضأن كبيرة الحجم كالتي رأيتها في نيجيريا والتي

تشبه الغنم السودانية الكبيرة التي نسميها (السواكن) ومثل هذه الاغنام لا تصبر على المناطق الاستوائية ذات الغابات الكثيفة التي تكون فيها حشرات وأدواء اخرى تحد من نمو الاغنام وإنما تكون في مناطق الرعي كمناطق الساحل التي يقصد بها ساحل الصحراء مما بلى الاراضي الخصبة في الجنوب التى لا تبعد كثيراً عن المناطق الاستوائية .

وأخبرنا الأخ صلاح البارودى أنهم يستوردون هذه الاغنام من تشاد.

ومررنا في جانب من الشارع الرئيسى برجل كل بضاعته قوارير مليئة بزيت النخيل الأحمر الذي يستعمل إداما للطعام وهو جالس في الشمس الضاحية ولا مشترين عنده. وغير بعيد منه رجل آخر بضاعته حطب قد حمله على عربة يد.

دخلنا ساحة المسجد الخارجية الرئيسية من بوابة واسعة وأوقفنا سيارتنا بداخلها تحت ظل شجرة ظليلة من أشجار الظل النضرة، وقد استحق بفنائه الواسع المسور هذا أن يسمى بالجامع الكبير، دخلنا إلى المصلى الرئيسى وقد بدأ الإمام بالخطبة إذ كان المؤذن يؤذن ونحن ندخل من الباب الخارجى فوجدنا المكان مليئا كله بالمصلين وليس فيه مكان لمصل واحد وبعض الناس قد فرشوا شيئا يصلون عليه خارج المسجد المسقوف ولم يكن معنا فراش ولا بنا صبر على اللبث في الشمس فكان أن دخلنا فأفسحوا لنا جزاهم الله خيراً.

ولم أر من بينهم شخصا واحداً في مثل لونى بل لم أر بينهم من هو غير إفريقي. خطب الامام خطبة عربية مسجوعة لاشك في أنها مستلة من احد الكتب ومع ذلك خيل الىَّ أن القوم يفهمونها وقد سألت الامام بعد الصلاة عن هذا الأمر فقال: إن أكثر المصلين لغتهم الأصلية هي

العربية فهم من تشاد وشمال الكاميرون ويفهمون العربية والذين ليسوا من اولئك في الاصل قد عرفوا العربية من إختلاطهم بالتشاديين والسودانيين هنا. ثم أعقبها بخطبة عربية قصيرة ايضاً معتادة ثم صلى صلاة خفيفة أيضا وكان فصيحا جداً بالعربية لا لحن فيها ولا عجمة.

وبعد الصلاة

وبعد انقضاءالصلاة سلمنا على الامام واسمه (موسى محمد تايب) أصله من شمال الكاميرون ومقيم في هذه البلاد كما سلم علينا نائب الامام (بشيرجالو) كما حضر معنا الحاج محمد سيلا الذي يعتنى بالمسجد وهو من مالي وقد ذكرني اسمه بسمي له عامل في سبيل الخير والدعوة الإسلامية محسن إلى الدعاة وهو التاجر الثري (محمد سيلا) الذي يعيش في مدينة منروفيا عاصمة ليبريا و(سيلا) هم من السراقولا الذين هم من أهل السودان الغربى الذين كانوا في القديم ممن أسسوا سلطنة مالي الاسلامية ذات الامجاد العريضة.

وبحثنا مع هؤلاء الاخوة تاريخ هذا المسجد فقالوا إنه المسجد الكبير وأخبرونا أن المسجد جدد بهذا البناء الحالى عام ١٩٦٦م وهو يضيق بهم الآن كما رأينا ذلك إلا أنهم لا يستطيعون العمل في توسعته بسبب ضيق ذات اليد فأخبرتهم أنه يمكنهم أن يجمعوا ما تيسر لهم جمعه من المال ثم يكتبوا إلى رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة ونحن لا ندخر وسعاً في مساعدتهم إلا أننا وغيرنا من خارج هذه البلاد يصعب ان نبدأ توسعته ابتداء، ثم عقدنا معهم إجتماعا تحت ظل شجرة من اشجار العمية (المانجو) ظليلة ولاحظنا وجود الحشائش التي تشبه اعشاب الربيع عندنا بعد المطر الجود وهي نامية

في فناء المسجد رغم كون الأقدام تطئوها.وذلك ان هذه البلاد لا تشكو من الجفاف.

واخبرونا أن الرئيس السابق (بوكاسا) كان قد منح المسلمين مساعدة للمسجد كما أن هذه الأرض الواسعة هي هدية من الحكومة للمسلمين أيام الحكم الفرنسي وأن عدد الجوامع في (بانقي) ثمانية وهي المساجد التي تقام فيها الجمعة وأما المساجد الصغيرة التي أسموها الزوايا فانها تبلغ عشرين، وبعضها زوايا حقيقية بمعنى أنها في الاصل كانت لبعض أهل الطرق الصوفية التي أكبرها هنا الطريقة التيجانية، ولكن صار اسم (زاوية) مصطلحاً على كل مسجد صغير لاتقام فيه الجمعة. وقالوا إن المسلمين يزيدون زيادة واضحة بسبب هجرة المسلمين ولاسيما من تشاد وبسبب إسلام بعض الوطنيين الأصلاء من أهل البلاد إلا أنهم ذكروا أنه لو كانت هناك دعوة منتظمة ذات وسائل متكاملة أهمها العناية بمن يسلمون وملاحظتهم بالإرشاد والتوجيه بعد إسلامهم مباشرة لكانت النتائج اعظم ولكن الدعاة يقومون بالعمل بصفة شخصية ومنفردة ومع ذلك فان النتيجة جيدة ولله الحمد.

ومن الأمثلة التي تذكر في هذا الصدد أن شخصا يرتدي الملابس العربية الكاملة ما عدا العباءة وعلى راسه (غترة) وعقال انضم الينا وقدمه الحاضرون بأنه (محمد شريف حيدره) وكلمة حيدره في مالي تعنى شريف النسب وقالوا إنه يمضى وقته يتنقل للدعوة الى الله في بلاد غرب إفريقية.

ثم تجولت في أبهاء المسجد فرأينا فيه مدرسة مبنية بناء جيداً إلا انهم قالوا إن عدد الطلبة بها قليل جداً لعدم وجود مدرسين متفرغين، وإلا فان العدد سيكون كبيراً جداً للحاجة الماسة إلى ذلك. وقالوا: إن

المسلمين المهاجرين هنا مختلطون ما بين هوسا وفلاني (فلاتة عندنا) وماليين وتشاديين مما قد يضاعف من مشكلة التفاهم بينهم فيما عدا الذين يفهمون العربية منهم.

ورأيت شيئاً جيداً في أماكن الوضوء في المسجد وذلك أنهم وضعوا على أرضها حجارة ملساء مرتفعة نوعا ما حتى تنزلق عنها المياه المستعملة ولا يصيب رجل المتوضىء منها شيء وكنا قد عملنا في بعض المساجد عوضاً عن ذلك وهي شباك من الحديد ينفذ منه الماء ويضع المتوضىء عليه رجله، ولكن عملهم هذا يتناسب مع امكاناتهم المحدودة .

والتقطت صورة للمسجد الذي له منارتان ملونتان بالوان خضراء وبيضاء وليست له قبة، ولاشك في ان ذلك يعود إلى ضعف الإمكانات المالية.

أصيل بانقي

اتفقنا مع بعض الذين قابلناهم من ائمة المساجد والمشتغلين بالتعليم الإسلامي هنا على ان يصحبوا إخوانهم ويكون الاجتماع بهم هذا المساء وذلك لوضع برنامج لزيارة المساجد والمدارس الإسلامية (الكتاتيب) في هذه المدينة.

ولذلك قضيت أصيل هذا اليوم في حديقة الفندق ذى الموقع الجميل على ضفة النهر فكنت أكتب وأراقب الأهالى الذين هم من سكان خط الاستواء الأصلاء وأهم ما يلاحظه المرء على الذين يراهم قرب النهر أنه ليس على رجالهم من اللباس إلا سروال قصير يستر العورة المغلظة، وأجسامهم مفتولة ليس بها ترهل وبعضهم يذرعون الشاطىء

ينقلون الناس إلى أماكن اخرى داخل البلاد في قواربهم الصغيرة التي يجدفون بها في النهر. وأكثر الذين رأيتهم هنا يبدو من حالتهم أنهم لا عمل لهم لأنني لا أرى مايشغلون به أوقاتهم وبعض المواطنيين أراهم يأتون يقفون ويظلون من دون عمل إلا الحملقة في الشاطىء والحديث مع الآخرين ومثلهم طوائف من الصبية أيضاً شبه عراة يجلسون في شاطىء النهر الرملي أو يلعبون حوله.

ولاشك في أن حياة كثيرين منهم لم تبعد كثيراً عن الحياة القديمة التي كانوا يحيونها في الغابة حيث كانوا يأكلون من ثمار الأشجار أو ما يزرعونه من مزروعات بسيطة الكلفة، جيدة المحصول ومن دون أن يتكلفوا لذلك شيئا لأن المطر هو الذي يتكفل به مثل الكسافا والموز ولذلك لا يهمهم الوقت ولا يهمهم ماضاع على أولادهم منه.

ولقد رايت طائفة من نسوة السودان الغربي (التكرونيات) يحضرن إلى شاطىء النهر بالقرب من حديقة الفندق ومعهن طعام ملفوف بأوراق الموز ومربوط بحبال من أغصان الاشجار وهم يتخذون أوراق الموز بمثابة الأواني للطعام ونحوه، أو بمثابة ما استحدث من الاطباق الورقية السميكة التي يؤكل بها الطعام مرة واحدة ثم ترمى، ويمر بهن الصيادون من النهر فيشترون ويأكلون، وهذا أمر جيد إلا أن غير الجيد في الأمر أن بعضهن يطبخن الشربة على الشاطىء الرملي الجميل نفسه يوقدن تحتها بالحطب الذي يخلف الرماد فيوسخ الشاطىء ويفسد رونق أرضه.

ولكن المرء يعذرهم، ويقول: إن هذه هي المتعة العاجلة التي يجنونها من شاطىء نهرهم هذا لان ما عليه من فندق ومقصف وحديقة مزهرة

مجملة إنما ينتفع بذلك غيرهم من أجانب لأن الأهالى لا يستطيعون الاقتراب منه لغلائه.

ونساؤهم؟

وماذا عن نساء أهل هذه البلاد مادمنا تطرقنا إلى الحديث عن رجالهم وصبيانهم؟

والجواب: انهن الأفريقيات الأصيلات أو إن شئت قلت: إنهن الاستوائيات العريقات في الإستوائية إن صح التعبير ولا تقل العريقات في الاستواء الذي يعني الجمال فهن مثل الجابونيات وأهل جنوب الكاميرون لم يرزقن حظاً كبيراً من الجمال، ولذلك يلاحظ المرء أن أهل السودان الغربي أكثر وجاهة منهم واحسن قامات وأكثر انسجاما في تقاسيم الوجوه ونساؤهم يتفوقن في جمال المظهر على هؤلاء الاستوائيات بمراحل.

ومع ذلك لاحظت من الشيء الحسن عندهن أي نساء البلاد الأصليات التمسك بالزى الافريقي الذي تركته بعض الافريقيات بعد خروجهن من الغابة وتركهن الحياة فيها وهو الذي يعتمد على فوطة تلف على اسفل الجسم فوقها صدرى أو شيء يشبه الفوطة ايضا يستر أعلى الجسم إلا ان صدرها واسع ربما ليفسح المجال للهواء ليصافح البدن والرأس مكشوفة.

ولسن في هذا الأمر كالكينيات أو الليبيريات اللائى يقلدن الغربيات في ارتداء الزي الافرنجي وليس لهن زي وطني أو لا يردن أن يكون لهن ذلك.

أما رواد مقهاة الفندق فهم كساكنيه من اجناس مختلفة من إفريقيين فيهم طائفة من العرب من السودان وموريتانيا وفيهم طائفة من

السودان الغربي (مالي والسنغال) يعرفهم المرء من قاماتهم المديدة، وثيابهم المعتنى بها وبخاصة من جهة النقش بالخيوط التي تكون كثيرة، كما أنهم رجال مال وأعمال تجارية معروفون بذلك بالنسبة إلى غيرهم من الأفارقة الذين يسكنون في الجنوب من بلادهم، وهناك الأروبيون ما بين جماعات من السياح وقوم عاملين من الفرنسيين الذين لا تزال لهم كلمة عالية في هذه البلاد، بل بالغ بعضهم فقال إنهم يتمتعون هنا بامتيازات لا يتمتع بها غيرهم من الاجانب.

وأسعار المقهاة عندهم متوسطة فالشاى بثلثمائة وخمسين فرنكا إفريقياً غربياً ويساوى ذلك ثلاثة ريالات الا ربعاً تقريباً.

وفي المساء حضر إلينا بعض الاخوة من أئمة المساجد ومدرسي المدارس الإسلامية فبحثنا معهم بعض الأمور المتعلقة بالمدارس والكتاتيب الإسلامية.

وركبنا بعد ذلك سيارة أجرة للبحث عن السمك في مطعم في وسط المدينة فوجدنا وسط المدينة جيداً ذا شوارع واسعة وأبنية غير عالية ولكنها جيدة وبعد ذلك انتظرنا في الشارع سيارة أجرة فجاء جندى وقال: أنا ابحث لكم عن السيارة وجاء ضابط وقال: لا تقفوا في الشارع قفوا عند المركز اكثر أمناً ثم اوقف سيارة أجرة ومد يده فأعطينا الجندى لهما الف فرنك فشكرا ذلك.

وعجبنا من عدم الأمن للغرباء في الليل ومن انتظار رجال الامن لشيء

يوضع في أيديهم مقابل قيامهم بخدمة صغيرة هي جزء من واجبهم.

قالوا لنا عندما وصلنا أمس وكرروا القول بأن هذا الموسم هو موسم الجفاف في هذه البلاد وليس موسم الامطار ومع ذلك فانه قد تنزل فيه أمطار جيدة، ولم نكن نرى سحاباً في هذا النهار ولكن في اثناء الليل لم أشعر إلا بصوت مزعج ينبهنى بقوة من النوم وعرفت انه المطر وهو شديد الوقع وخاصة على رواق في الفندق من الصفيح ثم استمر نزول المطر وتواصل حتى الصباح ولم نستطع تناول طعام الافطار في المقصف الواقع على ضفة النهر بسبب ذلك فاكلنا في أماكن داخلية ضيقة.

يوم السبت ١٤٠٥/٤/٢٨هـ ، ١٩٨٥/١/١٩م

استمر نزول المطر حتى ضحى اليوم فبرد الجو حتى شعرنا بالحاجة إلى المزيد من الثياب في هذه المنطقة الاستوائية وكان قبل ذلك لابد من إشعال مكيف الهواء في الغرفة ويرجع ذلك إلى ارتفاع نسبي في موقع هذه المدينة الاستوائية. ومن الادلة البدهية على ذلك كون هذا النهر الذي يجري بجانبها يذهب إلى غرب القارة حيث المنطقة أكثر انخفاضاً.

في السفارة السودانية

عقدنا جلسة بحث وعمل في مكتب الأخ (دفع الله الحاج على عثمان) في السفارة السودانية وقد أحضر إضبارات تتعلق بشئون المسلمين وبخاصة الشئون الثقافية لانه المسئول عن ذلك في السفارة.

واخبرنا أن المسلمين هنا في حالة متدنية من الناحية الثقافية وذلك بسبب الضعف الشديد في امكاناتهم المالية.

وقد تضمنت الإضبارات طلبات عديدة قدمت من بعضهم إلى السفارة السودانية، وقال إننا اتصلنا بالسفارة السعودية في (ياوندي) عاصمة الكاميرون رجاء بذل المساعدة للمسلمين لأن إمكانات السودان محدودة في هذا المجال.

وقال أحب أن أخبركم في هذا الصدد بشيء سار جداً وهو أن حكومة هذه البلاد قد وافقت على إفتتاح مدرسة عربية سودانية في العاصمة وأن تتعاون مع السودان في استمرارها في العمل وهذا كما قال — امر تمس الحاجة إليه جداً في هذه البلاد وهو لازم لأولاد العاملين في السلك السياسي من العرب المقيمين هنا كما أنه لازم لأبناء السودانيين والتشاديين المقيمين في هذه البلاد.

وعرض ان تبذل رابطة العالم الإسلامى جهودها المشكورة في هذا الصدد، فأخبرته بأننا مستعدون لبذل جهودنا ولا بأس بها من حيث الحجم ولله الحمد فنحن — مثلا — نستطيع المساعدة على ترميم المساجد والاسهام في دعم المدارس الإسلامية (الكتاتيب) بتخصيص مدرسين للغة العربية والدين الإسلامى سواء أكانوا من اهل البلاد أم ممن تتعاقد معهم الرابطة من الخارج. كما أنه يمكننا إرسال كتب ومراجع علمية ومصاحف إلى جانب دعوة عدد من رجال العلم والعاملين في التدريس الإسلامى إلى المملكة العربية السعودية لزيارة الرابطة وتوثيق العلاقة بينهم وبين اخوتهم في العالم الإسلامى بوساطتها.

ثم حضر السفير السودانى الاستاذ (فاروق عيسى) وكان قد حضر البارحة للسلام علينا في بيت الاخ (دفع الله) ولكنه وجدنى قد نمت فأبدى اعتذاره عن الجلوس بسبب إنشغاله بمرافقة الوزير السودانى في

زيارته الرسمية لافريقية الوسطى ودعانا لطعام العشاء في منزله هذه الليلة فقبلنا دعوته شاكرين.

ثم حضر القنصل السودانى الأخ (محمد علي عبد الرحمن) فشاركنا الجلوس والبحث ثم أعطانا سيارته لتبقى معنا في هذا النهار لزيارة المساجد والكتاتيب.

وعندما خرجنا من مقر السفارة السودانية كان المطر لايزال يهطل والشوارع موحلة إلا ما كان من الشوارع الرئيسية المزفلتة والأهم من ذلك أنني لن استطيع التصوير في هذا الجو المظلم فصرفنا سيارة الاخ القنصل بعد أن أوصلتنا إلى الفندق.

وقد استمر نزول المطر خفيفا وبقيت السماء ملبدة بالغيوم فحرمتنا حتى من الجلوس في مقصف النهر كما صرت أسميه.

وبعد الظهر وقف المطر وإنتشرت الإفريقيات البائعات على ضفة النهر فكان أعجب ما في منظرهن شعرهن القصير الذي يجعلنه على هيئة قرون قصيرة واقفة إلى أعلى لأنها لاتتدلى لقصرها وهؤلاء هن من السودانيات الغربيات سكان مالي والسنغال وماحولها. واما الإفريقيات الاستوائيات الأصيلات فانه لا شعر في رؤوسهن مثل هذا وإنما هو قصير كالفلفل الاسود لايمكن لفه ولا ربطه فضلا عن تسريحه وبعض الشابات هنا يجعلن رؤسهن كالحقل المحروث بمعنى أنه يكون في الرأس عدة خطوط خالية من الشعر بينها خطوط فيها شعر قصير.

عشاء السفير

وكانت الفائدة الكبيرة التي حصلنا عليها من هذا اليوم هي من حديث اخينا السفير السودانى في بانقي (فاروق عيسى) الذى لبينا

دعوته للعشاء في بيته في السابعة والنصف من هذا المساء واستمتعنا بحديثه العميق وفهمه للشئون الافريقية بل الشئون الدولية لانه قد زار كثيراً من دول العالم ويتتبع سياستها ويمتاز بالذكاء واللباقة.

وكانت المائدة عربية مختصرة ليس فيها من إفريقية إلا موائد الطعام واستمرت إلى قرب الحادية عشرة وكنت أهديته نسخة من كتابى عن سلطنة بروناى المطبوع بعنوان «زيارة لسلطنة بروناوي الاسلامية» فاخبرنى أنه على شغله مع الوزير السودانى والوفد الذى معه قد قرأ أجزاء من الكتاب وأنه يهتم بقراءة أمثال هذا الكتاب الذى يوضح أحوال البلاد المسلمة الشقيقة.

يوم الاحد ١٤٠٥/٤/٢٩هـ ١٩٨٥/١/٢٠م

جولة في مدينة بانقي:

والجولة في هذه المدينة واشباهها لمثلي تعني الأطلاع على المدينة وعلى أحوال المساجد والكتاتيب التي تعلم مبادىء الدين الإسلامي.

وقد امتدت هذه الجولة طوال هذا اليوم وكانت بصحبة أخ كريم من أهل هذه البلاد بالولادة والوالدة وان كان والده مالي الأصل ــ نسبة إلى مالي ــ وهو يتحدث العربية بطلاقة لأنه من معلمي الدين الإسلامي وإمام في جامع التقوى واسمه الحاج (يوسف نيماقا) كما كان سائق سيارة الأجرة ايضا أخا مسلما يعرف العربية وإن كان مولوداً في هذه البلاد وهو (سالم حسين) تشادي الأصل، ولكن ذلك وحده لن يجعله يبقى على اجادة العربية، وإنما كان ذلك لكونه يخالط أهل تشاد وأهل شمال الكاميرون المسلمين إضافة إلى السودانيين الموجودين هنا واللغة الوحيدة التى يتفاهمون بها فيما بينهم هي العربية.

لحم القرود :

كانت الوقفة الأولى في السوق المركزي للمدينة، وكان مالفت نظري أكثر هو كثرة لحم القرود المعروض للبيع وهو معد للأكل. ومن أقبح الأشياء التي رأيتها قروداً ميتة قد شووها كاملة ورؤسها باقية ورقابها تشهد على انها ميتة لم تذبح ليزيد ذلك في قبحها والتنفير منا فكأنها بذلك يصدق عليها قول حماد عجرد في بشار بن برد الشاعر:

ويااقبـــــــــح من قردٍ اذا ما غمـــي القــــرد

وكأنها يصح أن يحرف البيت فيها فيصبح:

فيااكـــــــــره من قرد اذا ماشوي القـــــــرد!

وقد التقطت صوراً لهذه القرود المشوية أو هي هكذا كما بدت لي من صلابة قوامها وسواد لونها إلا اذا كانوا قد أيبسوها وملحوها بمعنى جعلوها تشبه القديد اليابس ليسهل نقلها وبقاؤها كما يفعل بالسمك اليابس أو المقدد ومع ذلك فان البائع طلب حلوانا (بقشيشاً) من أجل الصور فأعطاه السفير الذكورى مائة فرنك إفريقى غربى أى أقل من ريال سعودي قليلا فرضى بذلك وقلت في نفسى: ما أرخص الصورة فالتقطت له مع قروده الميتة صورة غير ميتة أو حية كما يقولون في بعض الصور فطالب بحلوان آخر فكان له ما أراد من حلوان زهيد آخر و (لحية يرضيها مدّ الشعير وش يزعلها؟)

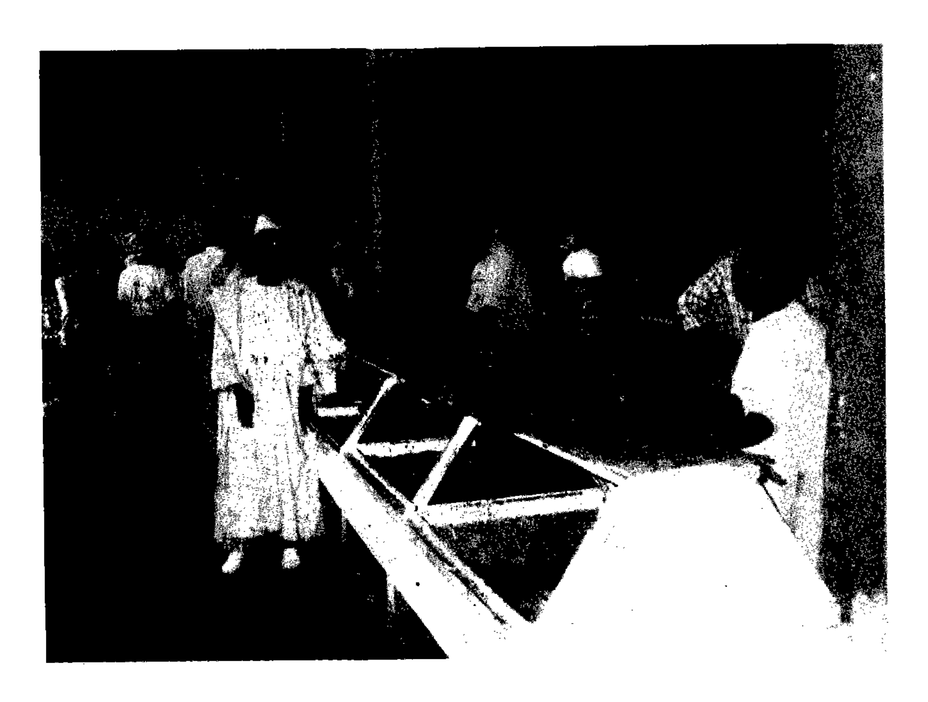

القرود معروضة للبيع في سوق بانقي

ولحم الفيل

ورأيت قطعا ضخمة من الهبر وهو اللحم الخالص ليس فيه شحم ولا عصب ولكنها لا تشبه ما عرفته من اللحوم وهي على البعد بلحم البعير أشبه فسألت عنها فقال البائعون: إنها من لحم الفيل ! ولحم الفيل ليس كلحم القرد بطبيعة الحال الذي هو مستقذر مستخبث وهو مسخ كما يعبر عنه علماء المسلمين الاوائل يساوونه في هذا الأمر بالخنزير كما ساوته الآية الكريمة في التمثيل به لقوم من بنى اسرائيل: ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**﴾ وإن كان لحم القرد ليس هو في الحرمة كلحم الخنزير بل قال بعضهم: إنه مكروه كراهة تنزيه فلحم الفيل يمكن أن يقال بحله لانه ليس مفترساً وان كان يدخل تحت عموم الحديث في تحريم أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى

مخلب من الطير فهو من السباع وهو ذو ناب كبير ظاهر، بل هو أكبر ناب لاى سبع معروف غير أن المراد بالناب في الحديث هذا الناب الذي يفترس به صاحبه الحيوان والمخلوقات الصغيرة وهذا هو مفهوم السبع المفترس ايضاً، والا فإنه ليس المراد بكل ذى ناب مجرد وجود الناب لان الناب موجود في الحيوان الذي هو حلال الأكل، مثل الجمل والثور ولكنها لا تفترس به.

إلا أن الغرابة في لحم الفيل هنا أنه يميل إلى السواد وهو صلب في منظره وملمسه وأظنه لذلك يستعصى على النضج الكامل وما شبهت منظر هذه القطع الدهماء أي (البنية) من لحمه إلا بقطع الأخشاب الحمر الصلبة.

وهناك طائفة من الوحوش وسباع الغابة بعضها لا نعرفه وهي معروضة للبيع من اجل أكل لحمها غير مذبوحة بل رؤسها متصلة برقابها من دون اى شيء يدل على ذبحها ولا ادرى بم قتلوها أذلك كان بالحبالة؟ ام بالرصاص؟ ولكن كان منها غزال صغير مشوى يباع كاملا وبدون ذبح مثل غيره ولقد ذكرني هذا بواقعة ذكرها لي صديقنا الاخ

(بكرى جاوارا) وهو وجيه من بلاد مالي مقيم في مدينة (ليبرفيل) عاصمة الجابون وهي انه رأى مرة في المجزرة غزالاً جيد المظهر معلقاً معروضاً للبيع فجعل يتأمله استحساناً لمنظره، فسأله البائع عما اذا كان يريد شراءه لأن لحمه طيب فقال الأخ بكري: لو كان مذبوحا لاشتريته! فاجابه البائع: ليس هذا مشكلاً سنذبحه لك الآن وكان الغزال قد مات يوم أمس!

وقد لاحظت هنا أن معظم الباعة في هذا السوق هم من الرجال بخلاف الأسواق الشعبية الأخرى التي تكون الباعة فيها في العادة من النساء وتلك هي طبيعة أهل السودان الغربى على وجه الخصوص وعادة الافارقة على وجه العموم.

غير أن الأمر هنا يختلف اذ معظم البيع والشراء في البضائع الصغيرة هي من نصيب الأخوة المسلمين من أهل السودان الغربى ـــ ماعدا الاشياء المحرمة مثل لحم الخنزير أو المستقذرة مثل لحم القرد.

وقد رأيت باعة لحوم البقر والغنم والدجاج في هذا السوق المركزى معظمهم من أهل تشاد أو الكاميرون ويتكلمون العربية كلهم من ذلك أنني عندما وقفت امام لحم بقرى جيد أتامله وأسأل عن سعره بادر صاحبه وقال بالعربية: هو كويس وسألت عن ذبحه فقال: وانضم إليه آخرون: إن الذبح هنا كله حلال لأنه لا يذبح المواشي المعروفة غير المسلمين .

وأحاط بنا هؤلاء الاخوة عندما سألوا مرافقى عني ولم أكن أرتدي اللباس العربى ومظهري بذلك كما يقولون يشبه مظهر الأوروبيين لانهم لا يلاحظون الفروق ما بيننا وبينهم وإنما يلفت منظرهم بياض اللون أو سواده فلما أخبروهم بأنني مسلم جعل بعضهم يخبر بعضاً والتفوا حولنا يتحدثون.

وبذلك تبين لي ما عرفته سابقاً من أن أهل تشاد لم يقتصروا في نشر العربية على بلادهم، وإنما حملوها معهم إلى مهاجرهم التي ليس فيها لغة شعبية جامعة مثل هذه البلاد إضافة إلى رقي العربية وكونها أيضاً لغة مفهومة سائدة في شمال الكاميرون وفي السودان الشرقي الشقيق.

بلاد إستوائية

يستطيع من يكون قد رأى أنحاء العالم مثلي أن يحكم على موقع البلاد التي يزورها إذا كان لا يعرف موقعها قبل ذلك من الفواكه والخضروات المعروضة في اسواقها الشعبية أى غير المستوردة، وذلك لأن كل منطقة جغرافية في العالم تتميز بوفرة فاكهة أو خضرة تنبت فيها ولا تكثر في غيرها إلا إذا كانت هناك ظروف محلية تؤثر في ذلك الموقع مثل الارتفاع الشديد عن سطح البحر كما هو الحال في أكثر عواصم أمريكا الجنوبية الواقعة ضمن الدائرة الاستوائية مثل (كيتو) عاصمة الاكوادور وبوغوتا عاصمة كولومبيا فهي وإن كانت استوائية الموقع فانها باردة الطقس، تكاد تعدل في ذلك بعض البلدان المعتدلة لارتفاعها الشديد.

أكوام الموز في سوق بانقي
وامرأتان خلاسيتان تشتريان من السوق

وفى سوق هذه العاصمة الاستوائية (بانقى) رأينا الفواكه الاستوائية الشهيرة مثل الباباى والأناناس والموز الاصفر الكبير والموز الاخضر الكبير الذي يستعمل للطبخ فيقوم لأهله المعتادين عليه مقام الأرز عند أهل شرق آسيا ومقام القمح عندنا مثلا. بل رأينا الموز عندهم أكواماً مكومة وأنواعاً منوعة وهو أكثر المعروضات في هذا السوق. وعندهم برتقال محلى أو إن صح التعبير فهو برتقال استوائي فهو يخالف البرتقال المعروف عندنا في أهم الاشياء وهو المنظر فهو عندنا أصفر مائل للحمرة (برتقالي) وعندهم أخضر وهو صلب القشر، صعب التقشير لذلك، تبيعه النساء في الغالب مقشراً ليسهل على مشتريه أكله.

وشيء مهم استوائى آخر وهو زيت النخيل أي نخيل الزيت الذي يقوم مقام زيت الزيتون في البلدان المعتدلة الجبلية بل مقام السمن في بلادنا فهو يستعمل إما للطعام أو لأغراض أخرى مشابهة لما يستعمل له السمن.

وقد رأيتهم في عدة بلدان يضعونه في قوارير يبيعونه وهو نوعان أصفر قليلا وأحمر وقد سألتُ أحد الجزارين المسلمين عن قيمة الكيلو الواحد من لحم البقر فقال إنه ألف فرنك بدون عظم، وثمانمائة فرنك بعظمه، والريال السعودي يساوى مائة وثلاثين فرنكا من فرنكاتهم التي هي العملة السائدة في أقطار إفريقية الغربية التي كانت مستعمرات فرنسية.

وكان الأخ الذي كلمنا في السوق اسمه (محمد زوقولو) يتكلم العربية لأن أمه من تشاد ومولود في إفريقية الوسطى، وتكلم بكلمة لفتت انتباهي وهو قوله في شيء سألته عنه واظنه البصل: (ماواجد) فسألته عن

معنى واجد هذه التي تكلم بها! فأجاب إنه كثير أى ذلك الشيء وأظنه ـ كما قلت البصل المكور الذي نعرفه في بلادنا يريد أنه ليس كثيرا هنا.

وهذه كلمة من عدة كلمات تميز لهجة تشاد العربية وإمتدادها عبر نهر شارى إلى شمال الكاميرون إذ لاحظت أن فيها كلمات وتعبيرات غير شهيرة في الاستعمال إلا في العامية النجدية مثل جملة (بالحيل) بمعنى بقوة أو بكثرة. فهذه الكلمات يخيل إليَّ أنها قفزت من قلب الجزيرة العربية إلى تشاد وماحولها من دون ان تمر بما كان في طريقها كالسودان أو جنوبي مصر.

ولاشك في أن سبب ذلك هو وجود قبائل عربية نجدية مهاجرة في أزمنة مختلفة كانت تحمل لهجتها هاجرت ،معها اللهجة دون ان تستقر بمكان بالطريق أو أنها كانت معروفة في البلدان التي مرت بها ولكنها نسيت واستبدلت بغيرها على مدى القرون نتيجة لهجرة أقوام عربية اخرى لا تستعملها.

أما البصل الذي جلب لي هذه الفائدة وهي سماع كلمة (واجد) بمعنى كثير فإنهم ذكروا أيضاً انه مستورد من تشاد فهو اذاً كاللغة العربية التي غزت هذه البلاد الافريقية وانتصرت في غزوتها.

وتركنا داخل السوق المركزى لإلقاء نظرة على خارجه فرأيت طائفة من الإخوة من المهاجرين الجدد من أهل تشاد والمرء يعرفهم على البعد من ملابسهم بل قمصهم ـ جمع قميص ـ لأنهم لا يرتدون غيرها ويضعون الطواقى ـ جمع طاقية فوق الرؤوس. وهذه القمص هي

القمص العربية بل السعودية التي نستعملها في المملكة من دون تغيير. وهؤلاء الإخوة ليس لهم عمل وهم صف غير طويل استندوا إلى حائط السوق يبيعون الاكياس الخالية من الخيش والقطن وغيرها. وكلهم يعرف العربية.

وفي خارج السوق أيضاً رأيت ماعزاً صغيراً جداً أسود اللون تحسبه بهماً وهو صغار الغنم والماعز فاذا تأملته رأيته بالغاً واخبرونا أن هذه هي الماعز الاصيلة في هذه البلاد الاستوائية تكون صغيرة الاجسام قصيرة الأرجل وأنهم أخذوا يستوردون الماعز الكبير من تشاد ونيجيريا وشمال الكاميرون فضلا عن غرب السودان.

خارج سوق بانقي

وعن قصر أرجل هذه الماعز وصغرها جاء الخيال يقول: إنها وقد نشأت في هذه البلاد الاستوائية ذات الامطار الغزيرة والاعشاب الكثيرة

لاتحتاج إلى ان تكون ذوات أرجل طويلة ولا ظهور عالية لكي تتناول بها أغصان الشجر وتتسلق الاشجار القصيرة بخلاف ما عليه الحال في البلدان الصحراوية وبلاد ما يسمى بالساحل الذي يراد به ساحل الصحراء جهة الجنوب إن كانت تصح تسميته في العربية بالساحل.

وذكروا ان سعر الواحدة من هذا الماعز الصغير يبلغ ثمانية الآف فرنك أي حوالي ستين ريالاً سعوديا على وجه التقريب.

كله من عمل بوكاسا:

تركنا هذا السوق المركزى وما فيه من قرود وحشود من الناس مخترقين الحى الراقي من مدينة (بانقي) الذي يقع السوق في جانب منه فرأيته واسع الشوارع جيد الابنية، وإن تكن الابنية الكثيرة الطوابق (العمارات) غير موجودة فيه أو نادرة جدا. ولما ابديت إعجابي بذلك قال لي المرافقون كما قال لي غيرهم قبل ذلك: هذا كله من عمل بوكاسا وإن عامة الناس لايزالون يحبونه، وإنه كان إذا رأى شيئا في الخارج فأعجبه أمر بأن يجعل مثله في بلاده.

وسألتهم كما سألت قبل ذلك غيرهم عنه وهو مانسب إلى (بوكاسا) من أكل لحوم البشر فقالوا إن الثابت أنهم وجدوا بجانب الثلاجة في منزل خاص له رجلا ميتا مثلجاً فقالوا: إنه كان قد أعده للأكل وأنه كان يأكل لحوم البشر.

قالوا ولكن كثيراً من الناس هنا لا يستغربون ذلك فيما لو ثبت عنه إذ المعروف أن هناك قبيلة في هذه البلاد اشتهرت بأكل لحوم البشر حتى الآن وهي قبيلة (مباكا) ولكنهم يخفون هذا الأمر عن الآخرين خوفاً من عقاب الحكومة.

مسجد التقوى

لافتة مسجد التقوى بين الشيخ نيماقا (إلى اليمين)
والشيخ عبدالوهاب الدكوري (إلى اليسار)

وصلنا إلى مسجد التقوى الذي يؤم فيه اخونا الشيخ (يوسف نيماقا) وكان الأخ (دفع الله) السوداني أخبرني ان المسجد يصلى فيهِ اناس كثير يستمعون إلى شرح الشيخ (يوسف) ووعظه باللغة المحلية وهي (السانقو) لأن اكثر الائمة غيره إنما يخطبون أو يعظون بالعربية.

لم يكن المسجد كبيراً ولا فاخر البناء وإنما كان حسن الفراش قال لي الشيخ يوسف: إن فراش هذا المسجد الجيد هو تبرع أخ مسلم بمفرده هو الحاج (محمد المصطفي) أصله من نيجيريا ومقيم في هذه البلاد وهو برناوى من برنو في شمال شرق نيجيريا. أما المسجد فانه حديث البناء إذ لم تمض على بنائه إلا ثلاث سنوات ونصف وبنى بتبرعات محلية من المسلمين في هذه البلاد.

قلت له: هذا عن بنائه فماذا عن المصاريف المتجددة للمسجد مثل الكهرباء والماء فاجاب: اذا كانت صلاة الجمعة طلبنا من الناس أن يسهم كل منهم بما يستطيع لهذا الغرض فجمعنا ما يكفي.

ورأيت أحد الأخوة الكرام في المسجد عرفوه لنا بأنه (الشريف عثمان) ومعنى هذا أنه شريف النسب بمعني أنه من ذرية الحسن أو الحسين رضى الله عنهما غير أنه أسود اللون بل فاحم السواد لان السواد في هذه البلاد هو المعتاد وهو يتكلم العربية بطلاقة فلما سألته عن المكان الذى تعلم فيه قال: إنه في (تنبكتو) في مالي، وإن أصله من أهل السوق.

قرب مسجد التقوى مع بعض المسلمين

وأهل السوق في مالي مشهورون بأن فيهم من العلماء الفضلاء عدداً كبيراً وبأنهم يحرصون على اقتناء الكتب العربية يتداولونها ويشترونها بما غلا ورخص ويعتنون بها حيث يرحلون وينزلون طلبا للكلأ لأنهم في الأزمان المتأخرة غلبت عليهم طبيعة البداوة إن لم تكن هي طبيعتهم الاصلية في القديم وهم مع ذلك ليست لغتهم العربية هي اللغة الأصلية بل لهم لغة أخرى هي لغة الطوارق الذين هم طائفة من البربر الشرقيين أو هي قريبة من لغة الطوارق.

كما قدم اليَّ الشيخ يوسف والده وعمره سبع وثمانون سنة ولكنه لايزال قوي البدن جيد الصحة. ثم جاء المؤذن الأخ (محمد جارا) أصله من (سيقو) في مالي ومولود هنا، و(سيقو) في مالي منطقة شهدت مملكة بل إمارات إسلامية ذات أمجاد أضافتها إلى أمجاد بلاد (مالي) الكثيرة.

وحضر أيضاً الأخ (محمد شرف الدين) من تشاد ويعمل بالتجارة هنا وهو مثل سائر أهل تشاد في هذه البلاد يعرف العربية جيداً.

ولم يقف الأمر بالتعريف على الرجال إنما أضاف الأخ يوسف إلى ذلك تقديم والدته وهي سيدة جليلة من تشاد اسمها (حواء بشير) كلمتنا بعربية واضحة.

في غمرة الحديث عن هذه النماذج المسلمة التي قابلناها في المسجد كدنا ننسي أن نتحدث عن المسجد نفسه فهو مبنى بلبن الإسمنت ومسقف بالصاج وله منارة صغيرة لم يراع في بنائها الفن والذوق وإنما اقتصروا بسبب قصور النفقة على مجرد بنائها صغيرة قصيرة على هيئة منارة وهم معذورون في ذلك ومشكورون على بذل الجهد الذي استطاعوه ومن أعطى كل مايستطيعه فقد بلغ الغاية في الجود.

وهو واقع في حي شعبي ولكنه أحسن حالاً من باقي الأحياء الشعبية في كثير من البلدان الإفريقية الإستوائية وان كان اسمه منسجماً مع الأسماء الإفريقية المذكورة فهو (لكوانقا).

وأكثر بيوت هذا الحي من طابق واحد مبنية من لبن الاسمنت ومسقفة بالصفيح على شكل سنام البعير من أجل ان تنزلق عنها مياه الامطار الكثيرة في هذه البلاد وليس في شوارعه إزفلت وانما هي معبدة مرصوفة. وهو قريب بل هو ملاصق لشارع (بوغندا) أفخر الشوارع في هذه العاصمة.

وعندما تركناه ودخلنا في شارع (بوغندا) رأيت جمهوراً غفيراً من الشبان والشابات والشرطة يبعدونهم عن قلب الشارع لتسهيل المرور فأخبرونا أنهم جاءوا لمشاهدة سباق الدراجات.

ورأيت في هذا الشارع ما رأيته على ضفة النهر من وجود باعة متجولين يبيعون الخبز الطويل من القمح فهو يصنع هنا بكثرة ولاشك أن ذلك بسبب تأثير الإخوة الذين وفدوا إلى هذه البلاد من تشاد والسودان وشمال الكاميرون وإلا فان الإفريقيين تحت خط الإستواء قد اعتادوا على وجبات غير الخبز في طعامهم مثل الكسافا واليام والدخن ونحوها وان كانت هذه الثلاثة وبخاصة الكسافا هي الغذاء الاكثر إنتشاراً عند السكان الأصليين في هذه البلاد.

سرنا مع شارع بوغندا الفاخر فاعترض ضابط شرطة ومعه جندى واقف بسيارته سيارة الاجرة التي نستقلها وطلب من السائق أوراقه فأخرج من السيارة مجموعة كبيرة من الأوراق أخذ يري الضابط منها واحدة بعد أخرى وآخرها كانت ورقة الضمان الصحي.

ثم أذن له بالسير ولما سألت السائق الأخ (سالم حسين) عن السبب في إيقافه قال بالحرف الواحد (يدوّر قروش) وكلمة قروش بمعنى النقود عامة هى المستعملة هنا في اللهجة التشادية مثلما هي عندنا في المملكة.

وأما معنى الكلام فإن الضابط يبحث عن شخص لا يحمل كل الأوراق المطلوبة حتى يأخذ منه نقوداً مقابل إطلاق سراح سيارته.

في حي المسلمين

ويسمي (حي كيلو خمسة) لأنه يبعد عن قلب المدينة مسافة خمسة كيلات وهي كلها مساحة معمورة متصلة وهو حي للمسلمين بمعنى ان أكثرية السكان فيه هم من المسلمين الذين هم من السودان الغربي مالي والسنغال وتشاد وشمال الكاميرون ومن السودان الشرقي ايضاً وهو الذي يقع فيه مطعم (البان جديد) الذى أكلنا فيه من قبل ويملكه أخ سوداني شرقى كما تقدم.

سلكنا الشارع الرئيسى فيه ويسمى (كولونقو) ورغم كون هذه الكلمة ذات جرس إفريقى استوائي فإن اللغة المستعملة في هذا الحي أكثر من غيرها هي العربية والشارع غير مزفلت ولكنه مرصوص أو معبد وتقع على جانبيه مجاري المياه الخبيثة المستعملة وإن كانت الامطار الغزيرة تساعد على طردها وإبعادها من الحي لأنها تجرف معها هذه المياه القذرة.

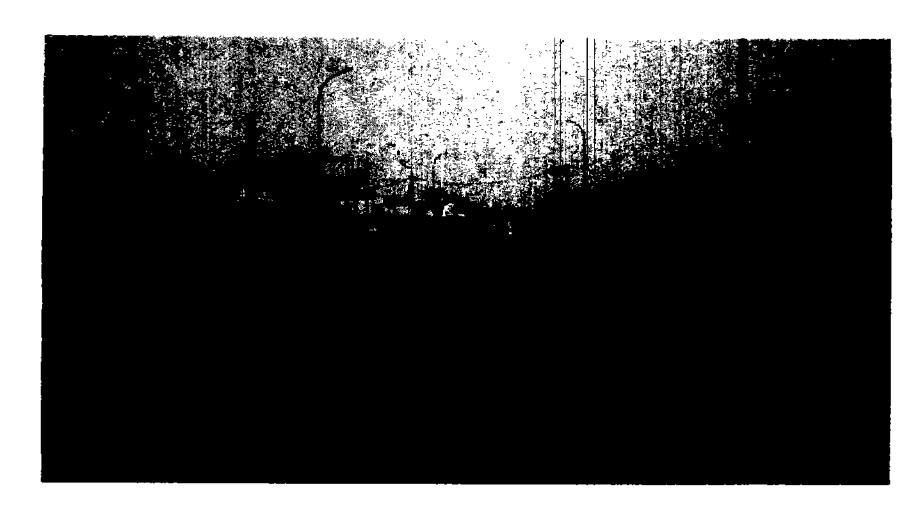

والبيوت في الحي معظمها أو كثير منها مبني من الطين لأن الذين بنوها قدموا من بلاد تستعمل الطين في البناء مثل السودان الغربي وهو ماكنا نستعمله في بلادنا في القديم قبل الازدهار الاقتصادي الحاضر وان كان الطين عندنا في قلب المملكة أفخر من طينهم وأقوى على مصابرة الزمن بسبب الجو الصحراوى الجاف في بلادنا غير انهم هنا في هذه البلاد المطيرة يعالجون تأثير المطر الغزير علي الطين بمنع وصوله إليه فيسقفون بيوتهم غالبا وهى صغيرة في الغالب بسقوف من الصفيح تكون لها أردان او حافات عريضة تكون بمثابة المظلة الواقية من المطر فلا يصل الى الجدران.

مسجد النور

عطفنا من الشارع العام في هذا الحي إلى شارع متفرع منه وهو واسع كالشارع العام والسعة هي الصفة الوحيدة من صفات الشوارع الجيدة فيهما ووقفنا عند مسجد صغير المساحة ولكن شد انتباهي شيء رأيته فيه فاعجبنى وأبهجني الا وهو منظر شيخ وقور عليه حلقة من الرجال ولا أقول التلاميذ لئلا يظن أنهم صغار في السن فبعضهم قد وخطه الشيب وأحدهم يتلو عليه القران الكريم بتلاوة مجودة جيدة فهم يتعلمون تجويد التلاوة بالقراءات المنسوبة لامجرد معرفة التلاوة.

وسمعتهم يقرأون بقراءة (قالون) وقراءة ورش السائرة في المغرب المسلم كله.

والشيخ نظيف الثياب بهي الطلعة إسمه (ميكاييل الحسن الحبيب) أصله من تشاد ولكنه كان عندما دخلنا عليه جالساً الجلسة التي كنا قد عرفناها من بعض إخواننا الموريتانيين المقيمين عندنا وهي الجلوس

غير المنتظم وإنما بإمالة الجسم إلى الأرض من الامام على هيئة من يهم بالسجود ولكنه لم يكمل وصوله إلى الأرض بعد.

المؤلف في حلقة الدرس في مسجد النور مع الإخوة

وتلك جلسة يقصد بها إراحة الجسم من وضع الجلوس المنتصب لمدة طويلة ولكنه عندما رآنا إعتدل في جلسته ولم نتكلم بل لم نسلم حتى فرغ القارىء من قراءته فسلمنا عليه وعلى تلامذته وعندما عرفوا أنني من رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة فرحوا بذلك.

وحدثوني عن هذا المسجد أن اسمه مسجد النور وأنه بني في عام ١٩٨١م بناه الحاج (أحمد داود وداعه) من تشاد.

وعلى هذا يكون هذا المسجد كمسجد التقوى المذكور قبله كلاهما حديث البناء وهو ما يعطي إشارة إلى سرعة انتشار الإسلام وحداثة بناء المساجد في هذه العاصمة ما عدا مسجداً أو مسجدين فهما قديمان.

وهؤلاء الاخوة الذين معنا في المسجد كلهم يتكلم العربية ويرتدي الملابس العربية وكأننا من ذلك في بلد عربي بالاضافة إلى أنهم من طلبة العلم الذين يسهل على مثلي الحديث معهم في الشئون الإسلامية ويقع المسجد في حي يسمى (كيتا) على إسم الرجل الذي ابتدأ عمارته ويذكرني هذا باسم الرئيس المالي السابق (موديبو كيتا) مع التساؤل عما اذا كان (كيتا) هذا من مالي أو له علاقة بها.

والمسجد مبنى بلبن الاسمنت ومسقف بالصفيح والإنفاق عليه مشترك بين المسلمين هنا وقالوا: إنهم لم يتلقوا أية مساعدة على ذلك من الخارج.

أجلت بصري في المسجد فوجدت في رفوف خشبية فيه طائفة من المصاحف قالوا: إنها جاءتهم من المملكة العربية السعودية وعند مدخل المسجد أداة خشبية على هيئة صندوق صغير ذى قوائم اثنتين على هيئة حامل المصحف قد وضعوها للاحذية.

ثم جاء الامام وإسمه (العاز أصيل) ولم أفهم معنى اسمه أول الأمر حتى فسره لي بأنه من العزة. وهذه يستعمل منها المعز والمعتز واما العاز بهذا المعنى فلم أسمع به من قبل. وهو من إخواننا الكرام أهل (تشاد) وبالذات من أهل (فاما) هناك أخبرنا القوم أنه لا يتقاضى شيئا مقابل إمامته للمسجد وانما هو يتبرع بذلك محتسبا الأجر من الله تعالي.

وذكروا أن المسجد رغم حداثة بنائه فإنه يمتلىء بالمصلين، بل يضيق بهم وفي صلاة الجمعة يصلون في الشارع وذكروا أنه يوجد بجانب المسجد بيت يمكنهم شراؤه بسهولة لأن صاحبه يريد بيعه ولكنهم لا يستطيعون ذلك لضيق ذات اليد.

وليس في المسجد منارة أصلاً مما جعل مظهره لايتميز عن مظاهر البيوت المجاورة التي هي كلها مسقفة بالصاج على شكل السنام إلا أن بعضها مبني بلبن الاسمنت وبعضها مبنى من الطين.

مدرسة مسجد النور

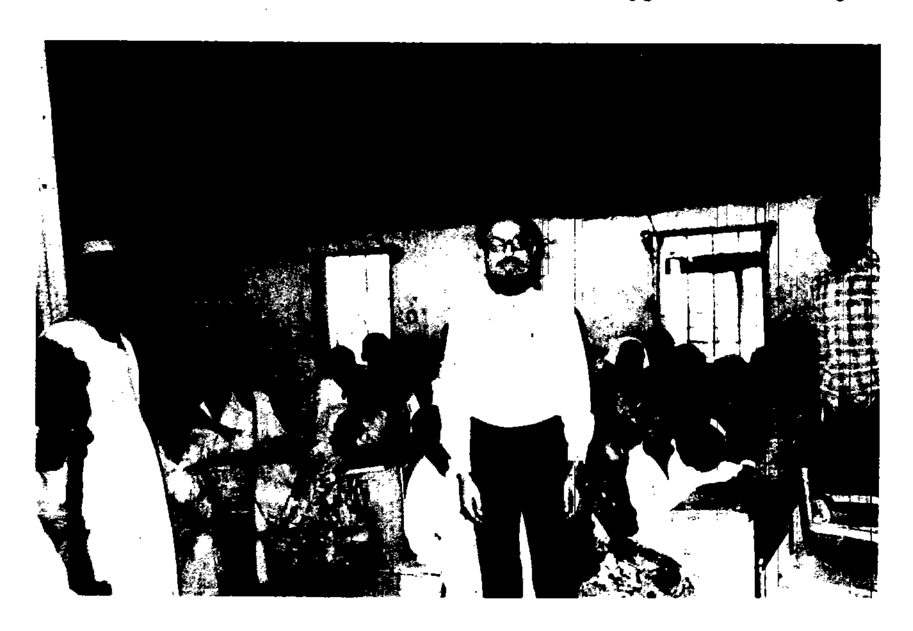

مع تلاميذ المدرسة الإسلامية

ومع هذا المظهر المتواضع للمسجد أو الموضوع هكذا بدون أن يكون هناك تواضع من أحد رأيت بجانبه مدرسة اكثر تواضعاً من المسجد بطبيعة الحال ماعدا لافتتها الجميلة والمعنى الأجمل من إنشاء هذه المدرسة التي هي في الحقيقة كتَّاب، بتشديد التاء.

أول ما رأيناه من المدرسة لافتتها التي كتب فيها بالعربية (مدرسة مسجد النور ترحب بالآباء!، وعندما دخلنا إستقبلنا الطلاب بعد أن نهضوا واقفين وهم باقون على مقاعدهم بالسلام وبإنشاد نشيد:

طلـــع البـــدر علينـــا من ثنيـــات الـــــوداع

مع أن الزيارة لم تكن مقررة ولم يعرفوا أن احداً سيزورهم لكنهم كانوا قد حفظوا ذلك في السابق لمثل هذه المناسبات.

ورأيت في داخلها لافتة أيضا بالعربية مكتوباً في اعلاها البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) وتحتها هذا البيت:

العلم يرفع بيتا لاعماد له والجهل يهدم بيت العز والشرف

مع أن بعض العلماء القدماء من المدققين المتحذلقين لا يجيزون أن تكتب البسملة أمام الشعر على اعتبار أنها آية قرآنية يخشى ان يلتبس أمرها على من يراها فيظنها من الشعر أو تكريما لها عن ان تخلط بالشعر. وكلا التعليلين غير سليم

والمهم هنا أن أذكر أنني شعرت بحزن عظيم بل بحياء مزعج من الله تعالى ومن هؤلاء الاخوة المسلمين لأن المدرسة مبنية من الطين بشكل رث بل مزر وإن كان ذلك ليس بالنسبة إليهم لأن هذه هي طاقتهم وإستطاعتهم، و(لايكلف الله نفساً إلا وسعها) وإنما هو لنا نحن إخوانهم القادرين في البلدان الإسلامية.

والمدرسة غرفتان صغيرتان إحداهما في باطن الاخرى لا تزيد مساحة الصغيرة فيهما عن خمسة عشر متراً والكبرى لاتبعد عنها كثيراً وقد حشروا فيها الطلاب والطالبات حشراً لضيقها وكثرتهم وذكروا أن هناك أعداداً غير هؤلاء من أبناء المسلمين يريدون الالتحاق بالمدرسة على ضيقها وضعف إمكاناتها لكنها لاتتسع لهم.

وهي تابعة للمسجد بمعنى أنها بدون أجرة وإنما بنيت مع المسجد لهذا الغرض والمدرسون فيها أيضاً بدون أجر فليست لهم رواتب شهرية أو أسبوعية وإنما يتقاسمون ما يحصلون عليه من رسوم شهرية رمزية من أولياء بعض الطلاب القادرين على العطاء وأما الفقراء والمحتاجون فلا يأخذون منهم شيئاً لأنه لا يوجد لديهم شيء يعطونه وأخبرنا المدرسون أنهم متفرغون للعمل في المدرسة بمعنى أنه ليست لهم أعمال أخرى خارجها وذكروا أن عدد طلابها يبلغ اربعمائة طالب من الجنسين.

وأنهم يتناوبون الحضور في أوقات مختلفة لانها لا تكاد تتسع لنصف هذا العدد.

واوضحوا أهم ما تحتاج إليه المدرسة مع أنه واضح لنا وهو توسعة المبنى الذي هو من الطين غير قابل للتوسعة إلا إذا بني بجانبه بناء آخر كما ذكروا أن المدرسين بحاجة إلى مساعدة تمكنهم من الإستمرار في العمل.

ثم حضر مدير المدرسة وإسمه ورسمه كلاهما يوحى بالجمال والطمأنينة عكس الحال في مظهر مدرسته فاسمه (الطاهر الغالي أحمد) من تشاد يرتدى لباساً نظيفا أبيض مع غطاء الرأس وهو خفيف السمرة.

والملاحظ هنا أن الاخوة المسلمين من تشاد هم نظيفو الثياب وذووا أفكار راقية بالنسبة إلى سائر المواطنيين من غير المتعلمين في هذه البلاد

مع الأخ الطاهر الغالي

أما حي (كيتا) هذا فانه شعبي موغل في شعبيته لا أثر فيه للازفلت، بل ولا لأية عناية مدنية حتى القمامة فانها لازالت مكومة فيه ولم أر من يبعدها عنه كمارأيت هذا من قبل في أحد الشوارع في حي (كيلو خمسة).

ومن الظواهر الإفريقية فيه نساء يطبخن الطعام خارج البيوت فضلا عن كون أكثر الملابس منشورة في الخارج.

ومن ذلك أيضا بئر تستسقى منها نساء ذوات مظهر تكرونى، وحزم من خشب قد أعد للبيع أو الاستعمال خارج البيوت، وأطفال مسلمون من أطفال أهل السودان الغربى بعضهم عليهم الملابس الشبيهة بالعربية وهي القمص تحتها السراويل وهذه كلها مظاهر إسلامية غير أن هناك مظهراً ليس إسلاميا بل هو كريه يتمثل في وجود خنازير سائبة في الشارع تأكل من الحشائش أو تبحث في المياه القذرة عما تأكله من قمائم ونحوها ومنظرها بقبح شكلها، وبآثار المياه القذرة على خراطيمها

وقوائمها مما يصد النظر عن رؤيتها لو كانت حلالا، ولا أشك في أنها قد تسربت إلى الحى بحثاً عما تأكله من القاذورات من أطراف الحي أو هي لقوم من الكفار في الحي نفسه حيث يوجد عدد منهم هنا.

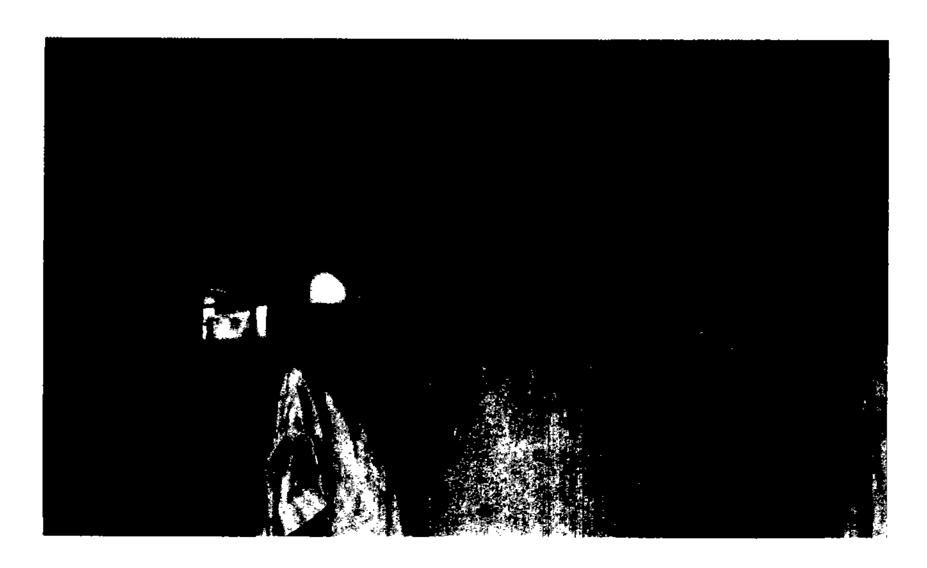

لافتة مسجد عباد الرحمن

مسجد عباد الرحمن

وصلنا إليه في حي تكرونى أو سوداني غربى ولو قلت : تكروري كما كان المؤرخون المسلمون يقولون سواء منهم المؤرخون الغرباء عن البلاد أو من مؤرخى السودان الغربي أنفسهم منهم على سبيل المثال الشيخ محد بيلو بن الإمام المصلح الشهير عثمان دان فودى حينما عنون كتابه المطبوع المشهور بـ (انفاق الميسور من أخبار بلاد التكرور) لو قلنا ذلك لما عرفهم القراء عندنا وإنما ذكرنا ذلك لأنهم لا يرون عيبا في هذه التسمية بل إنها تسمية لهم عرفوا بها في خارج بلادهم وإن لم تكن معروفة داخلها.

إلا أن كلمة (تكروري) قد اصبحت في بلادنا (تكرونى) بإبدال الراء نونا واكتسبت مصطلحا آخر غير المصطلح المعروف عند العلماء فصارت تعني في اذهان بعض الناس (اسود اللون) مع انها لا تعني هذا على وجه العموم عند اسلافنا المؤرخين القدماء وانما كانت تعني جيلا من المسلمين الذين تقع بلادهم في بلاد السودان الغربي وهم الذين كانت لهم سلطنات وممالك إسلامية عظيمة وبلغ بعضهم مبلغاً كبيراً في العلم والصلاح ويكفيهم فخراً في الحديث إنشاء دولة الاسلام القوية في شمال نيجيريا وما حوله علي يد الشيخ عثمان دان فودي.

وهؤلاء الاخوة (التكارنه) يتميزون عن أهل البلاد بفروق ذهنية كثيرة.

فعلى سبيل المثال رأيت نسوة من أهل الحي أقل سواداً من أهل البلاد الاصلاء ويغلب عليهن الحياء بحيث أنهن عندما رأيننا مقبلين وقفن عند أبواب بيوتهن من الداخل وهن يراقبن الغرباء بخلاف نساء أهل البلاد اللائي لا يبالين بالغرباء ولا بالقرباء من الرجال وإنما ينظرن دون مبالاة أو كما ينظر الرجل إلى الرجل.

وقفنا عند المسجد وكان مغلقاً فأرسلت إحدى النساء الواقفات بنية إلى بيت مجاور وارسلت إلينا صبياً قال: إنها تقول إن المفتاح مع المؤذن وانها أرسلت إليه في بيته كما أرسلت إلى إمام المسجد ليحضر وقد آنستنا من المسجد وهو مغلق لافتته التي كتب عليها بخط عربي مشرقي اسمه (مسجد عباد الرحمن تأسس عامى ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م) وتأمل هذا التعبير في الجمع بين التاريخيين الهجرى والميلادى بكلمة عامي: تثنية عام مع انه عام واحد له اسمان أو صفتان.

وكان اول الحاضرين أخاً اسمه (ابراهيم مرخوص) من الرخص ضد الغلاء ــ وهو من تشاد ثم حضر الامام واسمه محمد عيسى وحضر غيره فذكروا أنهم جميعاً كانوا يحتسبون الأجر من الله تعالى بالعمل في المسجد ولا يتقاضون على ذلك أجراً من أحد وقالوا: إنهم كانوا قد هاجروا إلى هذه البلاد قبل الحرب الاهلية في تشاد وذكروا لنا أن أحد المسلمين اللبنانيين الاثرياء في البلاد ساعدهم على بناء المسجد بشراء الاسمنت والصباغ.

والمسجد صغير مفروش بحصر إشتروها من تبرعات المسلمين وفي داخله لافتات كلها بالعربية إحداها فيها البسملة و(لا اله الا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله الصادق الامين عليه الصلاة والسلام). و(صلوا على الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام).

والآية الكريمة: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾.

وبجانبه في الخارج مكان مخصص للنساء خال من الفراش قالوا إنهن يصلين فيه يوم الجمعة.

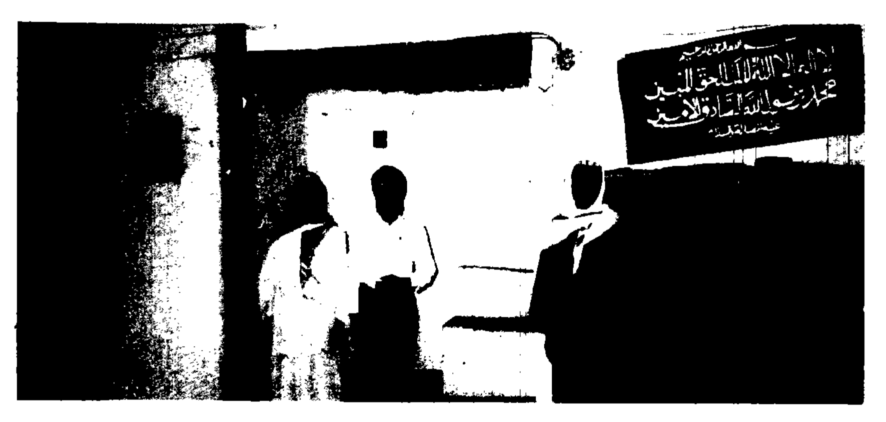

مع إمام مسجد عباد الرحمن في محراب المسجد

ويقع في حي اسمه (كوكو تروا) وهو حي قديم كبقية أحياء هذه العاصمة الافريقية الوسطى فيه أشجار من أشجار فاكهة (الباباي) ونخيل الزيت وبجانبه بئر يتوضأ منها الناس للصلاة. ويجلب منها الناس الماء لبيوتهم لأن مياه الانابيب لم تصل للحي.

ومن لطيف مارأيته في هذه البئر أنهم قد ركبوا على فوهتها التي هي غير واسعة وعاء حديدياً (برميلا) يغلق بغطاء يقفل بقفل فيكون في هذا صيانة للبئر عن الأوساخ وحماية للأطفال من الوقوع فيها.

ويبلغ عمق هذه البئر حوالي ١٤متراً.

وقد ودعنا الامام الذي كان يرتدي ملابس (سعودية) كاملة حتى إنه يغطي رأسه (بشماغ) أحمر وكذلك الذين حضروا معه.

المسجد العتيق

تركنا هذا الحي غير الجيد عائدين إلى الشارع الرئيسي في حي (الكيلو خمسة) وذلك لزيارة المسجد العتيق الذي ذكروا أنه أول مسجد أقيم في مدينة (بانقي) وكانت أولى الشواهد على العناية به مئذنته التي أقيمت على هيئة صومعة شاهقة بالنسبة إلى الابنية الشائعة في الحي وهي إلى ذلك ملونة بألوان فاقعة من الاخضر إلى الارجواني والازرق، وفي رأسها شاهد وهو الهلال إلا أنه بدون نجمة في وسطه كما هو المعتاد في بعض المساجد.

ومع اتفاق الذين حضروا معنا على أن البناء الحالى للمسجد كان في عام ١٩٦٨م فانهم إختلفوا في تاريخ بنائه الاول وأكثر الاقوال إعتدالا هي أنه كان في عام ١٩٣٩م قابلنا بقربه الأخ الحاج (مالم بابا) إمام

مئذنة المسجد العتيق كما ترى على البعد

الجامع و(مالم) هنا: هي (معلم) العربية التى يراد بها معلم الدين الإسلامي. وقال إن اباه كان يؤم في المسجد قبله.

والامام هوساوي من (الهوسا) أو الحوس كما كان مؤرخو العربية القدماء من أهل السودان الغربي يسمونهم وهم أقوياء أصحاب مهن وزراعة وجلد في الحروب ويسكنون في عدة بلدان إفريقية من النيجر إلى بنين وتوجو وغانا وأكثرهم يسكنون في شمال نيجيريا ورغم نعت بعض الكتاب لهم بأنهم قبيلة الهوسا فإن هذا غير صحيح لانهم لا ينتسبون

جميعاً إلى قبيلة بذاتها، وإنما هم مجموعة من الناس تجمعهم اللغة الهوساوية دخلت فيهم على فترات مختلفة أقوام أخرى فتكلمت بلغتهم فعدت منهم.

وللقبلية في إفريقية أهمية كبيرة فقد حرص الاخ الكريم الحاج (مالم بابا) على تأكيد أن الهوسا هم الذين قاموا على بناء هذا الجامع العتيق. وقال إنهم بنوه وحدهم من دون مساعدة من أحد وهو يعرف العربية جيداً ويرتدى القميص العربي الطويل.

مدرسة فلاح الإسلام

أضاف الأخ الحاج مالم بابا إمام المسجد العتيق إلى قوله بأن المسجد الجامع لم يتلق مساعدة من أحد بأن ذلك لا يشمل المدرسة الإسلامية الملحقة به والمسماة (مدرسة فلاح الاسلام) فقد ساعدتها السفارة السعودية بأربعة ملايين فرنك إفريقي بنت بها المدرسة هذا البناء الاسمنتى المسلح الذي لايزال غير تام.

وبينما كان يتحدث حضر (محمـود باباموديبو) وقال إن السفارة ساعدتنا بمبلغ أربعة ملايين وسبعين ألف فرنك لكن أنفقها على المدرسة أحد الاشخاص غير الموثوق بهم، ولم يسلموها لنا فبقيت المدرسة ناقصة وقد ارادت السفارة أن تكملها ولكنها طلبت منى إيصالا بالمبلغ الذي صرفه ذلك الرجل على المدرسة فلم اقبل فبقي البناء كما ترونه ناقصاً.

ورأيناه بناء جيداً بالاسمنت المسلح. ولكنه واقف عند السقف، والسقف المعتاد هنا يكون من الصاج على هيئة السنام، وإذاً لم يتبق

عليه إلا السقف ومع ذلك فان مدير المدرسة لم يتقبل بقية المساعدة على اعتبار أنه لم يشرف على البناء الاول وأنه يعتقد أن ذلك الرجل الذي ذكر أنه أحد الدعاة من نيجيريا قد تصرف في بعضها وطبيعى أنه للحكم على الموضوع حكما كاملا لابد من سماع مالدى السفارة لا سيَّما في قوله إنه لم يقبل تبرعاً جديداً من السفارة مع أنني رأيت أوله بناء اسمنتياً قويا معطلاً ذكر بنفسه أن آخره كان صكاً (شيكا) أرسلته السفارة ولم يقبله فعاد إليها.

وحدثنا عن المدرسة فقال إنها افتتحت في عام ١٩٥٦م وأنها تضم ٣٣٣ طالباً وطالبة والدراسة فيها مختلطة من البنيين والبنات وذكر أنهم يتقاضون رسوماً شهرية من الطلاب يتقاسمها المدرسون فيما بينهم كل شهر.

ثم تجولنا على فصول المدرسة بصحبته فرأيناها كبيرة حافلة بالطلاب والطالبات بعضها في الأروقة الخارجية للمسجد وبعضها في غرفة واسعة ملحقة به.

وجميع لافتات المدرسة والكتابة على سبوراتها هي باللغة العربية والجميع يتكلمون العربية بطلاقة.

ثم تجولنا في المسجد فرأيناه عالي السقف متسع المساحة مفروشاً بالحصر فوقها جلود الاغنام الكبيرة الموجودة في شمال نيجيريا إذا رآها الذى لايعرفها لايصدق أنها من الغنم لانها كبيرة وهي التي تكون مقسومة مناصفة باللونين الاسود والابيض لا يطغى أحدهما على الاخر بل كأنما خطت بقلم رسام وقد رأيت هذه الغنم كثيرة جداً وهي ترعى في شمال نيجيريا كما رأيت رعايا منها في مدينة (صوكوتو) هناك وذكرت ذلك في كتاب (قصة سفر في نيجيريا) الذي لم يطبع بعد.

ولفت نظري وجود أوعية صغيرة من الفخار المصنوع في هذه البلاد في محراب المسجد أحدها فيه رمل والثاني فيه عنبر وهو الأعواد التي

تطيب بها الغرف بإيقاد النار في طرفها والثالث فيه مجموعة من المفاتيح الخاصة بالمسجد أو مرافقه.

كما رأيت في جانب من المسجد هيكل سماعات كبيرة ذكر الامام أنها معطلة من مدة وأنهم لم يستطيعوا إصلاحها ويتمنون أن يصلهم غيرها من السماعات الكبيرة لان المسجد محتاج إليها، وليست السماعات بالشيء الوحيد الذي يحتاجه المسجد وإنما هناك أشياء أخرى مثل ترميم السقف لأنه (يكف) أي يسقط منه الماء عند نزول المطر كما أن المكان المخصص لصلاة النساء يوم الجمعة لا فراش فيه.

ومع ذلك رأيناهم قد كادوا يفرغون من بناء قاعة إسمنتية واسعة ملحقة بالمسجد وهذا يدل على علو هممهم، وبذلهم فيما يصلح المسجد.

ويقع المسجد علي شارع رئيسى إلا أن أهم ما يميز هذا الشارع ركود المياه القذرة الموجودة على جانبيه في قناتين كالعادة ولكن إحداهما يظهر أنها مسدودة في بعض المواقع مما جعل منظر هذه المياه القذرة الراكدة وحده كريها جداً.

إلى جامع نور القرآن

من الجامع العتيق إلى جامع ذكروا أن اسمه: (جامع نور القرآن) غير أننى رأيت لافتة فيه مكتوبة بالعربية نصها:«بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿**وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً**﴾ صدق الله العظيم، جامع انفوسا، بانقي، أفريقيا الوسطي.

وهو أكبر مسجد في بانقي في بنائه الجديد من الاسمنت المسلح القوي وفي مقدمته منارتان بل صومعتان لانهما مئذنتان مربعتان عاليتان إلا ان فيهما من الغلظ والاتساع ما أعجبني حتى صعدت واحدة منهما فرأيت أن في وسطها غرفاً ومكاتب إستغلوها وهي من ثلاثة طوابق مرتفعة عن باقى المسجد المؤلف من طابقين في مؤخرته بخلاف المصلى الرئيسي الذي هو مرتفع السقف.

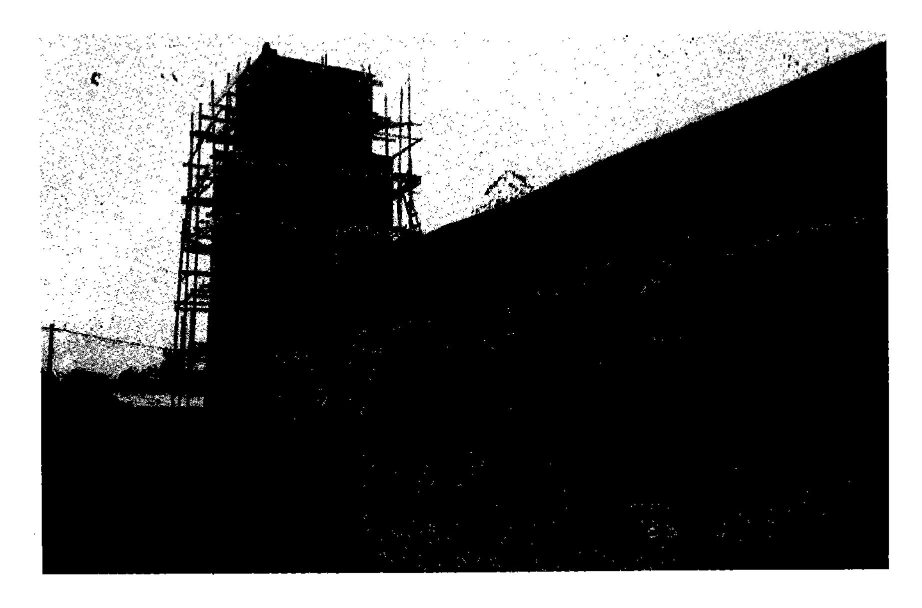

جانب من جامع نور القرآن كما يبدو من الخارج

وطبيعى أن يلفت بناءه النظر بقوته وكثرة ما يحتاج إليه من نفقة لذلك لم أعجب حينما قالوا إن سفير المملكة العربية السعودية في الكاميرون المجاورة الاستاذ عبد الرحمن العقيل قد ساعدهم على بنائه بمبلغ جيد وقد عرفت عن السفير العقيل الشهامة والاخلاص في العمل الإسلامى إلى جانب عمله الاساسي وهو السياسي. وقد جعلوا في القسم الخلفى لهذا المسجد مصلى للنساء مغلقاً ما بينه وبين الرجال

بحيث لا يرين منهم أحداً وهو أمر عجيب في هذه البلاد التي لا تعرف المرأة حتى المسلمة فيها الحجاب ولا تستغرب الاختلاط بالاجانب في الشارع والسوق والمحلات العامة.

وفوق القسم الخاص للنساء غرفة ضيافةٍ قالوا: إنها ستكون للقادمين من المسلمين لفترة معينة بجانبها مكتب، وكل ذلك بالاسمنت المسلح حتى سقفه.

وبجانب هذا المسجد مدرسة إسلامية ولكنها داخلة في الموقع عنه بعيدة نوعاً عن الشارع بخلاف المسجد الذي هو واقع على شارع عام واسع مباشرة ولذلك وضعوا لافتة للمدرسة على الشارع العام كتبوا عليها بخط عربى جيد (مدرسة نور القرآن تأسست عام ١٩٧٧م. تفقدنا فصول المدرسة مع المدرسين ومنهم الاخ (محمد صلاح الدين مغيران) من تشاد ذكر أنه تعلم في تشاد وفي السودان أيضاً.

عند لافتة مدرسة نور القرآن
المؤلف في اليمين بجانب اللافتة وفي اليسار أحد المدرسين

ورأينا في السنة الثالثة من المدرسة الدرس وهو في النحو مكتوبا بالعربية من دون أن يعرفوا أننا سنزور المدرسة وعنوانه بعد البسملة «الالف الممدودة» ثم بين أحكامها بتفصيل جيد متقن ، والاستاذ صلاح الدين نفسه جيد المعرفة بالعربية ولكن قدره أنه وإخوانه من المدرسين امثاله وجدوا وسط إمكانات محدودة لابراز مالديهم من علم وفضل وبإمكانات أقل من ذلك في مكافآتهم على أعمالهم.

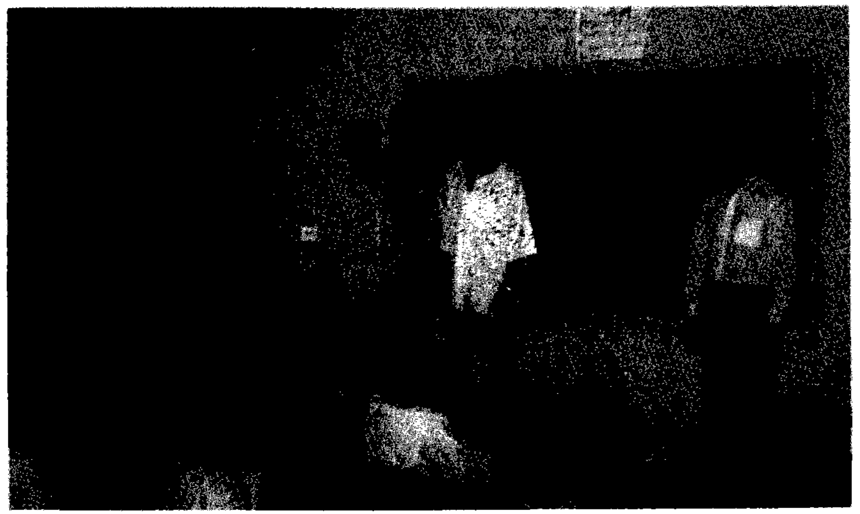

درس النحو على سبورة مدرسة نور القرآن والمؤلف
واقف أمام الفصل مع بعض المدرسين

ومع درس النحو المعقد هذا فقد لاحظت على أحد الاطفال في هذا الفصل حرزا موضوعاً في غلاف جلدي صغير ومعلقاً في رقبته ويتدلى على صدره فذكرت ما كان عليه الحال عندنا قبل عشرات السنين عندما كانت الأمهات في البادية يعلقن على أطفالهن مثل هذه الحروز التى تتضمن في الغالب أدعية وأوراداً معروفة وكانت العامة تسميها (الخط) لأنها تخط فيها آيات تلك الاوراد والأدعية.

أما السنة الرابعة في المدرسة فإن الدرس فيها الذي رأيناه على السبورة

هو الحساب وكله بما في ذلك المسائل وحلها باللغة العربية والأرقام أرقام مشرقية وليست مغربية أو ما تعرف الآن أنها افرنجية وهي العربية التي يسميها حتى الغربيون بذلك وهي المستعملة الآن في تونس والجزائر والمغرب وهي الاوسع انتشارا في العالم لا الغربى وحده بل حتى الشرقى فقد رأيتها مستعملة للارقام وحيدة في اللغة الصينية واللغة الكورية وأكثر ذلك ظهوراً هي أرقام السيارات في البلدين المشار إليهما.

وقد أخبرنا المسئولون عن المدرسة من المدرسين وجمهور من المسلمين حاضر يسمع ذلك أن المدرسين ليست لهم رواتب وإنما يتقاضون من كل طالب قادر على الدفع مبلغ خمسمائة فرنك إفريقى غربى في الشهر ويساوى ذلك أقل قليلا من أربعة ريالات سعودية أو ما يزيد بقليل عن دولار امريكى واحد فيقتسمون ذلك فيما بينهم وقالوا كما قال إخوانهم المسئولون الآخرون من قبل: إننا لا نأخذ شيئا من الطلبة الفقراء بطبيعة الحال لأنهم لا يستطيعون الدفع ونحن لا نستطيع ان نردهم عن التعلم وذكروا أن المدرسة تضم ١٣٩ طالبا وطالبة و٤ مدرسين وأنها بحاجة ماسة إلى المقررات المدرسية للمرحلة الابتدائية ومقاعد للطلاب. ثم انتقلنا لمشاهدة مبنى جديد للمدرسة جيد ولكنه لم يكمل.

مسجد نور الانوار

لانزال ولله الحمد والمنة في النور والأنوار رغم نقص الدرهم والدينار، عند هؤلاء الاخوة الأبرار فمن جامع (نور القرآن) الذي تقع بجانبه مدرسة (نور القرآن) أيضاً انتقلنا بالسيارة إلى مسجد آخر إسمه (نور الأنوار).

وجدنا حوله الحاج على سليمان قالوا: إنه رئيس جمعية الحجاج وقال لنا إن اكثر بناء المسجد هو تبرع منه.

والمسجد مبنى بلين الاسمنت ومسقف بسقف مستعار لم نر منه سقفه الحقيقي.

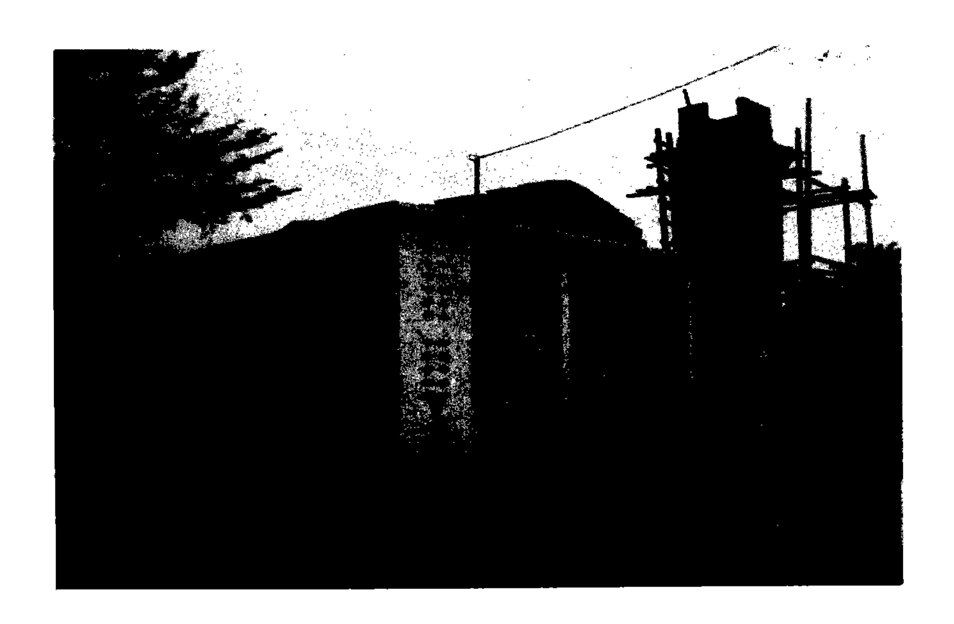

وذكر أن السفير السعودى في الكاميرون عبدالله العقيل قد ساعد في بناء هذا المسجد.

وذكر الأخ (علي سليمان) أن عدد المصلين في الأوقات المعتادة يبلغ حوالي المائة وأما في صلاة الجمعة فان العدد يصل الى أربعمائة.

والمسجد يعرف بمسجد مسكين إضافة إلى (مسكين بن حسن) ويقع على شارع (كو دوكو) في حي بيوته غير متلاصقة وأكثرها ذات حدائق غناء.

ثم تركنا هذا المسجد عائدين إلى الفندق فسلكنا شارعاً واسعاً ترى منه على البعد تلال خضر جميلة إلتقطت لها صورة منه.

وقد غامت الشمس قليلاً فعدنا الى الفندق

فطلب الاخ السائق المسلم منا الفين وخمسمائة فرنك إفريقي غربي أجرة للساعة الواحدة بسيارته ويساوى هذا حوالي اثنين وعشرين ريالا.

شارع واسع في بانقي

مواصلة الاجتماع بالاخوة المسلمين :

وفي هذا المساء زارنا في الفندق طائفة من الإخوة مدرسي المدارس الإسلامية كان بعضهم قد أخبرهم بقدومنا وذلك في مجموعتين إحداهما حضرت قبل صلاة المغرب وعدد أفرادها تسعة والأخرى بعدها

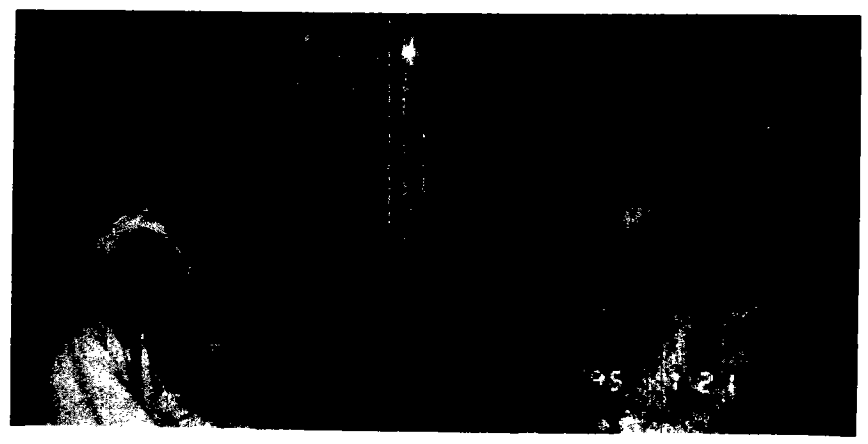

أثناء الاجتماع في الفندق بمدرسي
المدارس الإسلامية في بانقي

وكان معهم الأخ (اباموسى) الملقب بالقرآني نسبة إلى اشتغاله بتعليم القرآن الكريم وقد أرانا الاخ القرآني أوراقاً عما سمعنا به من قبل عن قيامه بالدعوة وإسلام بعض الاشخاص على يديه ومن ذلك ورقة فيها ذكر بعضهم.

وهو صاحب مركز إسلامي كان كلمنا بشأنه الاخ دفع الله (سكرتير) السفارة السودانية وقال إن المركز ينفق عليه من تبرعات المسلمين وأنه سبق أن تلقى كتباً من العراق ومصر وليبيا، كما أن المساعدة الوحيدة التي وصلت إليه من الخارج كانت من المملكة العربية السعودية وذلك عندما زار وفد من الرابطة هذه البلاد قبل ثلاث سنوات واشتروا له آلة رافعة للمياه ودراجة نارية لتنقلاته.

وقد حضر معه من هؤلاء الاخوة تسعة اشخاص

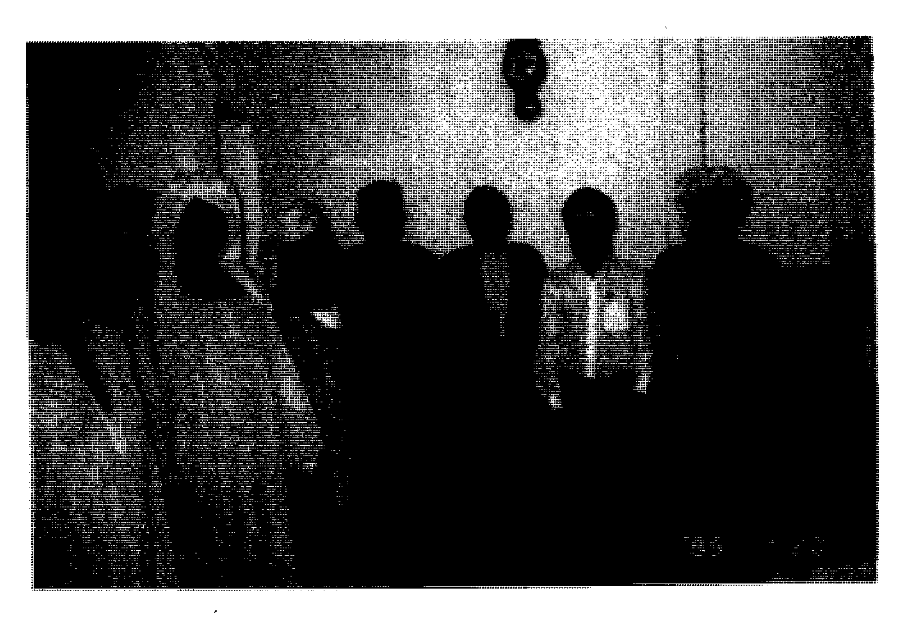

صورة تذكارية مع بعض العاملين في الحقل الإسلامي في بانقي في قاعة الاجتماع في الفندق

وفد الشباب المسلم.

كما حضر ممثلو حركة الشباب المسلم وقدموا اوراقهم الرسمية التي رأيت فيها اسم حركتهم: (رابطة الشباب الاسلامى الافريقى الوسطى)،وعدد الذين حضروا منهم سبعة فيهم رئيس الجمعية الأخ على حسين أمه من أهل البلاد الاصلاء ووالده من منطقة مروى في شمال الكاميرون.

ذكروا أنهم لم يتلقوا أية مساعدة من الخارج وأن أهم مساعيهم الان أن يجدوا مكاناً خاصاً بهم لأنهم لا يستطيعون إستئجار المكان فضلا عن إمتلاكه وإنما يمضون أعمالهم في الوقت الحاضر في مكان لأحد الاخوة المسلمين سمح لهم بالبقاء فيه حتى يجدوا لأنفسهم مكاناً خاصاً بهم.

وذكروا أن أول ما يعملون له من الآن إقامة مؤتمر عام للشبان المسلمين في جمهورية إفريقيا الوسطى يحضره ممثلون من أنحاء الجمهورية حتى يتدارسوا أمورهم فيما بينهم ويرسموا طريق العمل للانطلاق للدعوة، غير أن هذا يتطلب نفقات لا قبل لهم بها.

وقد طلبنا منهم كتابة ما يحتاجونه ووعدناهم بالكتابة للندوة العالمية للشباب الإسلامي التي مقرها الرياض لكي يعملوا علي الإتصال بهم ومساعدتهم على مشروعاتهم ثم ليسجلوا منظمتهم هذه لدى الندوة حتى يدعوا في المستقبل للمشاركة في الاجتماعات والمؤتمرات الاسلامية للشباب التي تعقدها الندوة أو تعقد بمعرفتها ومساعدتها.

وقد تقدموا بعد ذلك بالفعل بحاجاتهم نسأل الله تعالى أن ييسر لنا العمل على قضائها.

يوم الاثنين : ١٤٠٥/٤/٣٠هـ ١٩٨٥/١/٢١م

صباح العصيد:

كنت مع صديقي ورفيقي في هذه السفرة الإفريقية السفير عبد الوهاب الدكوري عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ومدير مكتب الرابطة الاقليمي في غرب إفريقية الذي مقره داكار وعمله من الناحية الرسمية يشمل هذه المنطقة وقد نزلنا لتناول طعام الافطار في مقصف النهر هذا الصباح مبكرين وكان الجو حسناً كما كان يقول أصحاب نشرات الأحوال الجوية إذا كانت الشمس صاحية مع أن حسن الجو بالنسبة إلينا في بلادنا الصحراوية أن يكون غائماً أو ممطراً وكان الملفت للنظر أن جماعة من البائعات الإفريقيات هنا قد بكرن إلى مكانهن المفضل قرب النهر وأخذن يوقدن النار بالحطب تحت قدور كبيرة ومع كل واحدة منهن (معصاد) وهو الذى تحرك به العصيدة في القدر لكيلا تتعقد فلا يذوب الطحين.

العصيد على ضفة نهر أوبانقي بحذاء فندق الصخرة

وشدني منظر هذه المرأة التى تعصد العصيد بالمعصاد وهو عود غليظ الرأس قليلا كان له شأن في حياتنا قبل نصف قرن إذ كنا نرى أهلنا يصنعون العصيدة من الذرة في أيام الشتاء الباردة فكنا نحب ذلك وكنا ممن وسع الله عليه في أيام الجدب تلك فكان أهلنا يضعون عليه تمرات من السكري اليابس حتى تحليه ولابد من شرب اللبن فوقه.

أما المعوزون من الناس فانهم كانوا يصنعون العصيدة من أى حب يكون مثل الدخن أو الذرة ويأكلونها طول العام وكيفما اتفق لها من المقبلات ولذلك فقد استمتعت في منظرها مما شد إنتباه زميلى الدكوري وربما كان ظن أن العصيدة هي من إختصاص هذه المنطقة الافريقية ولم يكن يعرف أن هناك عصيدة آسيوية أصيلة.

ولذلك بادرت لإحضار المصورة (آلة التصوير) أهتبل غرة من إحدى العصادات لكي التقط لها صورة لأنهن بالأمس بادرن بالإستنكار، بل بالإنكار عليَّ عندما التقطت صورة لهن وساعدهن على ذلك رجال من الأفارقة كانوا واقفين عندهن.

ورأيت المواطنين يقفون عند بائعة العصيد فتغرف لهم منه باناء صغير فيجلسون على مقعد مستطيل من الخشب ويأكلون وبعضهم إذا لم يجد مقعدا خاليا جلس على أى شيء.

والبائعة تغسل الإناء الذى انتهى منه آكل العصيدة أو شاربها إن شئت لأن لون العصيدة يظهرها غير صلبة ثم تضع فيه العصيدة مرة اخرى لمشتر آخر والغسل بالماء من النهر.

الى بلدة بوالي:

تقع بلدة (بوالي) على بعد يقل قليلا عن مائة كيلو متر عن العاصمة وفيها شلال يسمى شلال بوالي وتولد الكهرباء من مساقط الماء فيه وفيها مسجد يستحق أن يرى وجماعة من المسلمين لم يتصل بهم أحد من خارج البلاد لغرض المساعدة على الدعوة من قبل .

وأهم ما أراه واجباً في مثل هذه الحال هو الحصول على المعلومات الصحيحة عن وضع المسلمين بالمشاهدة أو بالاعتماد على مشاهدة الثقات وإذا ما تيسرت الأولى فهى الأولى كما في الآية الكريمة «ولكن ليطمئن قلبى» والمثل القديم: ليس الخبر كالعيان.

وفي الذهاب إليها أيضاً فائدة بل فوائد إضافية منها الاطلاع على حالة الريف وأهل البوادي في الطريق التي نمر بها إلى تلك المدينة.

اتفق الأخ الشيخ (يوسف نيماقا) مع أحد الاخوة المسلمين واسمه على محمد أصله من البرنو على اجرة الذهاب إلى هناك بأجر محدد للمسافة كله هو عشرون الف فرنك إفريقى غربى ، وكنا عزمنا على السفر إلى هناك مبكرين غير أن صاحب السيارة قال إنه يلزمه أن يحصل على رخصة من الحكومة للقيام بهذه المهمة لان سيارته مخصصة في الأصل للعمل داخل مدينة بانقي ولا يجوز لها أن تعمل هناك.

وانتظرنا مدة ساعتين كاملتين حتى ظننا أنه قد عدل عن الذهاب ثم جاء يحمل الرخصة.

في ريف إفريقية الوسطى

غادرنا مدينة يانقي العاصمة في التاسعة والربع من هذا الصباح مع قلب المدينة الجيد الذى بنيت بيوته بالاسمنت أكثرها من طابقين ويقع

فيه ميدان (ديمترى) الذي أقاموا فيه تمثالاً لزعيم الاستقلال عندهم (بوغندا) بالباء الموحدة.

حديث عن بوكاسا:

الحديث عن الزعيم. الفارط لهذه البلاد الامبراطور الزائف (بوكاسا) كثيراً ما يدخل اليه المرء هنا وإن لم يقصد ذلك لاكرها في الحديث عنه وإنما لكونه مشغولا بحديث آخر غير أن هذه البلاد هى بلاد بوكاسا وقد أثر فيها أثراً بالغاً لايمكن أن يمحى من ذاكرة التاريخ بل إن الحديث عنه كان لفترة معينة حديث العالم كله وليس حديث جمهورية إفريقية الوسطى وحدها حتى إنه شغل فرنسا بالحديث عنه بعد إقصائه عن زعامة البلاد ونفيه منها، وذلك حينما أعلن أنه سبق أن قدم هدايا بمثابة الرشاوى للرئيس الفرنسى السابق (جيسكار ديستان) وهي قطع ثمينة من الماس وأثرت أقواله في كثير من الناس بحيث نالت في ذلك الوقت من منزلة الرئيس الفرنسي في النفوس.

ولكن الحديث عنه هذا الصباح لكونه هو الذي بنيت في عهده هذه الاقسام الجيدة من مدينة يانقي وهنا سألت الاخوة المسلمين عن منزلته في نفوس المسلمين؟ فقالوا إن المسلمين كانوا يحبونه لأنه كان قد سهل التجارة لهم ولأنه وهذا هو الاهم كان قد أعلن إسلامه وتسمى بصلاح الدين.

غير أنه عندما ارتد عن الإسلام تدنت منزلته في نفوسهم وإن كانت لاتزال في الحالة الرفيعة لانه استطاع أن يقنع بعض زعماء المسلمين بانه قد ارتد عن الإسلام بدافع سياسي وليس لدافع ديني أو لشيء يتصل

بالعقيدة حسبما ذكروه فهو قد أعلن نفسه إمبراطوراً متوجا على هذه البلاد وأراد أن يضمن على حد زعمه عدم معارضة بابا روما والدوائر الدينية المسيحية لقراره ذلك فذكر للجميع أنه لايزال مسيحيا، ورجع عن تسمية نفسه بصلاح الدين وهو الاسم الذي كان قد أطلقه على نفسه عند إسلامه وهذا بطبيعة الحال ليس بعذر مقبول.

ومع ذلك لايزال بعض المسلمين وطائفة كبيرة من أبناء الشعب وغيرهم يحبونه ويحترمون ذكراه رغم ما صدر عنه من أفعال غير مناسبة ومانشره عنه خصومه من أنه كان يأكل لحوم البشر.

الريف الإفريقي الأوسط

إذا كانت كلمة الوسطى في اسم هذه الجمهورية الإفريقية وصفاً فانه يصح أن يوصف ريفها بأنه أوسط وعلى أية حال فاننا منذ أن بعدنا عشرة كيلات من قلب مدينة بانقى شعرنا بأننا قد بدأنا الدخول في الريف بالفعل وإن كنا نرى الآن حياً أشبه بضاحية من مدينة لم تشملها كلها العمارة ولا البيوت ولكننا رأينا مقبرة مسورة فيها قال لنا الأخ الشيخ (يوسف نيماقا) إنها مقابر للمسلمين واسم هذه الضاحية (قوبو نقو) منازلها أغلبها مبني بلبن الاسمنت وبعضها بالطين المطلي بالجص وسقوفها من الصفيح.

وأما أكثر الأشجار المغروسة ظهوراً فإنها الموز والعمبة (المانقو).

ثم واصلنا السير في ريف ندي، بل إن في أماكن منه مستنقعات متروكة وقد اتجهنا جهة الشمال وكان الطريق في هذا الجزء تعاد زفلتته إذ رأينا الجرافات مع العمال وهم منهمكون في إصلاحه وتوسعته.

الطريق الريفي بين بانقي وبوالي

وقد كان الشيخ الدكوري إشترى وسادة من السوق من أجل أن يجعلها وقاية لظهره لأن آلمقاعد في هذه السيارة غير مريحة وإنما هي تحتاج إلى إبدال شأن كثير من سيارات الأجرة ثم مررنا بأكواخ من الطين في منطقة ليس فيها إلا هذه الأكواخ الطينية وبقربها أشجار كثيرة من أشجار القهوة نامية كبيرة وهذا يدل أيضا على أن هذا الريف هو ندي بل رطب لأن أشجار القهوة لا تنمو إلا في مثل هذه الاماكن.

مركز الشرطة

رأينا سيارات واقفة وجنوداً واقفين على جانبى الطريق وقد سدوا الطريق نفسه بسلسلة حديدية مربوطة إلى عمودين في جانبيه.

والجنود يفتشون السيارات ويتحققون من ركابها، وعندما جاء دور سيارتنا لم يكن في أوراق السائق أى نقص وإنما كان السؤال عنا وقد نزل إليهم الشيخ الدكورى والسائق والمرافق الشيخ يوسف نيماقا فأخبروهم بأمرنا وبأننا دبلوماسيون ولكننا لم نحمل جوازات السفر معنا فتركونا نمر.

دخلنا إلى الطريق المزفلت وزفلتته جيدة الا أنه غير واسع ومع ذلك فهو يعتبر من الطرق الجيدة في إفريقية وعلمنا أنه يمتد بعد ذلك إلى الحدود مع الكاميرون وإلى الحدود مع تشاد أيضاً من ناحية أخرى.

وقد لاحظت هنا كثرة المنشور على الارض من ثمر الكسافا ينشرونه ليجف وهو في بياض الدقيق ومنه يصنع الدقيق بالفعل في أكثر إفريقية الاستوائية.

وزراعته شبيهة بزراعة البطاطس إلا انه أشبه بالشجرة منه بالنبتة فشجرته كبيرة في مثل شجرة الفلفل الاحمر وثمره ينمو داخل الارض كالبطاطس ولكنه يخرج كالجذوع الصلبة الخشنة بعضها طويل ممتد حتى تراه على البعد مثل جذوع الشجر الكبير إذا خرجت من الارض.

ويستعمل هنا لما يستعمل له الدقيق في البلاد التي تنتج القمح أو تعتمده غذاء لها إلا أنه صلب خشن يحتاج في تكسيره ثم طحنه إلى جهد.

وهو غذاء كله من النشا وليس فيه من الزلاليات شيء يذكر لذلك لابد من أكله مع مادة زلالية كاللحم أو البيض أو اللبن اذ اريد لآكله أن لا يصاب بسوء التغذية.

وكانت الكسافا المنشورة كأنها الطحين المعتاد منشوراً على الارض في مساحات كبيرة وقد قصد من ذلك أن تجف وأن يراها من يرغبون في شرائها من المارة الذين يسلكون هذا الطريق.

ومعها أو بقربها جزم عديدة من الحطب الجزل وضعت على قارعة الطريق للبيع أيضاً.

والمساكن هنا كلها طينية وبعضها مسقف بالقش وهو الأقل وإنما الأكثر مسقف بالصفيح إلا أن المنازل قليلة متفرقة لأن المنطقة ريفية خالية من القرى الكبيرة.

وأشجار الريف التي ترى ظاهرة لاتزال هي العمبة والقهوة .

خيمة من القش.

رأينا في هذا الريف منازل أشبه ما تكون بالخيام لولا أنها من القش وأنها ليس لها أروقة وهي الجوانب التي تكون للخيمة في العادة فهذه الخيام القشية تشبه المظلة الواقية من الشمس التي لا تمنع الهواء عن الجسم.

ولم اكن ألقي لها بالا إلا من حيث غرابة شكلها وكونها من مادة متوفرة عندهم وهي الاخشاب والقش ولكن إحدى هذه الخيام القشية، قد صارت ذات أهمية خاصة بالنسبة إلينا لانها كادت تصدنا عن طريقنا وتعيدنا خائبين الى (بانقي)!

لقد رأيت واحدة من هذه الخيمات القشية وتحتها ضابط وجنود من الشرطة إذ تبين أنها مركز للشرطة للتفتيش على السيارات والتأكد من الأشخاص الذين يركبون فيها.

وكان أول ما نظروا فيه أوراق السائق فوجدوها مكتملة غير أنهم طلبوا حسبما قال السائق والاخ (يوسف نيماقا) أن يروا أوراقنا فقال لهم الشيخ يوسف: أنا إمام في المسجد وهذه أوراقي تثبت ذلك وهؤلاء الاشخاص تحت كفالتى فامتنع الضابط من قبول قوله فنزل رفيقى الدكوري إليهم، وأخبرهم اننا لانحمل جوازاتنا معنا وأن غرضنا من سلوك هذا الطريق هو رؤية شلالات (بوالي) والرجوع مباشرة إلى العاصمة.

فقال له الضابط إنه لا يجوز لمثلكم أن يغادر الفندق من دون أن يحمل جوازه معه ولذلك فأنا مضطر الى إعادتكم من حيث أتيتم!

وكان هناك بائع للحم يشويه ويبيعه لمن يقفون عند هذا المركز فاستطابه المرافقون، فقلت لهم ممازحا : احذروا ان يكون لحم قرد!

فقال الشيخ يوسف: إن لحم القرد أغلى من لحم البقر ولا يشتريه إلا القادرون من الناس! وكان البائع يشوي اللحم على نار عنده ثم يلفه في أوراق من أوراق الموز ويأخذه الناس معهم.

وقد حضر اثنان من الجنود ففتشوا الحقيبة الخلفية في سيارتنا ثم أوقفونا وبعد مراجعة معهم وإلحاح قبلوا بأن يرهنوا أوراق الشيخ يوسف على أن يعطيهم مع ذلك حلواناً (بقشيشاً) أو رشوة فاعطاهم خمسة الاف فرنك وتساوى حوالي أربعين ريالا سعوديا فأذنوا لنا بمواصلة السفر وسهل الله لنا بهذه الفرنكات ما شددوه فترحمت على رؤية بن العجاج الذي أنشأ هذا الرجز:

لما رأيت الشفعاء بَلَّدوا نامستهـــم برشوة فأقـــردوا
وسهَّل الله بها ما شدَّدوا

مع أن ما أعطيناهم ليس رشوة أخذنا بها حقاً لغيرنا وإنما هي بمثابة الاتاوة التي طلبها من يملك ردنا عن مقصدنا فدفعناها تلافياً لذلك.

تقاسم الرفاق مع الجنود اللحم المشوي الملفوف بورق الموز وتركت لهم نصيبى فيه لان أوراق الموز نفسها لم تمس الماء وليس عند بائع اللحم أى نوع من أنواع الماء أو التنظيف وسرنا مع الطريق الازفلتى الجيد على ضيقه، وفي وسط هذا الريف الذي ليس في بيوته شيء مبني بالحجارة رأيت أكواماً من الحجارة قد صفت على شكل هرم على قارعة الطريق معروضة للبيع لمن يريد أن يشتريها وينقلها. إلى جانب

حزم الحطب الكثير والكسافا وأكياس من الفحم وكلها للبيع من منتجات هذا الريف حتى الحصا فإنه منه.

وقد أصبحنا نرى البيوت كلها في هذا الريف طينية ذات سقوف من القش على شكل الأسنمة.

نهر مبوكو:

إجتاز الطريق نهراً عليه جسر لابأس بجودته فسألت عن اسم هذا النهر فكأن الرفقة قد استكثروا السؤال عنه واستصغروا النهر عن السؤال فقالوا إنه صغير لايستحق الذكر مع أنه في ضخامة نهر (بردي) في دمشق مرتين ومجراه مفعم بالمياه الحمراء التي تحمل الطمي والخصب للزراعة.

وقالوا إن اسمه مكتوب على لافتة فوقه لم أفطن لها من قرب وهو (مبوكو) وهذا جرس إفريقي إستوائي ممايدل على أن الاسم وطني أصيل في وطنيته.

وقد لفت نظري منظر الريفيات بثيابهن النظيفة وشعورهن التي جعلنها ضفائر صغيرة واقفة إلى أعلى لقصرها وشعور البنات الصغيرات قد جعلت على هيئة الحقل المحروث.

وهن جميعاً مع رجالهن من جنس البانتو الأصيل الذين يسميهم الأوربيون بالزنوج ونحن لا نقر لهم هذه التسمية لان الزنوج أو الزنج عندنا هم جنس من الناس أو جيل من الناس بمعنى قبيل منهم تقع بلادهم في شرق القارة الافريقية فيما بين الصومال وموزمبيق.

وكانوا يسمون ذلك الساحل (برالزنج) والبحر الذي يليه الواقع شرق القارة (بحر الزنج) وبقيت من هذه التسمية (زنجبار) التي انتقلت

تسميتها من ساحل القارة الشرقي إلى تلك الجزيرة الواقعة غير بعيدة من الساحل مثلما إنتقل اسم البحرين من شرق جزيرة العرب إلى تلك الجزيرة المسماة بالبحرين الآن الواقعة في مياه الخليج العربي واسمها القديم كان (أوال).

إستمرت السيارة في السير واستمرت مشاهدتنا لاكواخ (قشية) هرمية الشكل وهذا هو شكل البيوت الافريقية الأصيلة ورأيت هنا ماعزاً أبيض اللون بل شديد البياض على حين أن الوان الناس شديدة السواد فالجو الذى أثر السواد في الناس لم يؤثر سواداً في الحيوان.

ثم أوقفنا مخفر آخر للشرطة في مقر هو (عشة) أيضاً على هيئة الخيمة كالتي قبلها ولكنهم اكتفوا بالاطلاع على أوراق السيارة.

وعلق الشيخ يوسف على كثرة الشرطة في هذا الطريق بقوله: قبل مدة قصيرة كان هنا خوارج يريد قطاع الطرق يقتلون الناس!

ثم علق الشيخ الدكوري بتعليق آخر ليس له علاقة بالأول فقال: إن هذه المنطقة كانت تابعة للكاميرون في القديم ولكن الاستعمار الفرنسي هو الذي خطط حدود هذه المستعمرات.

قرية لامبالي

مررنا بنهر أكبر من الاول مكتوباً عليه اسمه (لامبالي) فوقه جسر جيد ثم بجانبه مباشرة قرية اسمها على اسمه (لامبالي) أبصرنا فيها ونحن نسير قوما من إخوتنا أهل تشاد بملابسهم العربية التي توحي بأنهم يعرفون العربية بل تجعل المرء يجزم بأنهم كذلك لأن هذا هو المعروف عنهم فكان هذا مما بدد شيئاً من الشعور بالغربة في هذا الطريق.

وقد صارت المنطقة اكثر جفافاً أو لنقل باللفظ الصحيح أقل ندى وهذا أمر محمود عند مربي الماشية وزُرَّاع الحبوب ولذلك رأينا قطيعاً ضخماً من البقر الكبير الحجم قادماً من منطقة اكثر جفافاً لأنه يعيش هنا أكثر مما يعيش في مناطق الغابات الاستوائية الكثيفة.

وكثرت رؤية الكسافا المنشور على الارض فقال الشيخ (يوسف نيماقا): إنه الغذاء الرئيسي للكفار في هذه البلاد ويريد بهم أهل البلاد الاصلاء والا فإنه حلال بلال للمسلمين أيضاً لأنه نبات نافع. وقال إنهم يصدرونه من هذه المنطقة الى مدينة (بانقي)

ورأيت معه أيضا الموز الأخضر الكبير الذي يطبخ طبخاً ولا يؤكل كما تؤكل الفاكهة وإنما عندهم موز آخر للاكل صغير الحجم لذيذ الطعم.

ثم قلت رؤية البيوت على الطريق بحيث بدا جزء من هذا الريف خالياً من السكان فيما يراه المرء من الطريق ماعدا اكواخاً متفرقة بجانبها الكسافا المنشور على الارض كانه الاشرعة المبسوطة لبياض لونه.

ومازالت تماشينا أبراج الكهرباء وإن لم تكن كبيرة وهي قادمة من منطقة الشلالات التي نحن متجهون اليها ذاهبة إلى العاصمة (بانقي).

وقد بقي على الوصول إلى بلدة (بوالي) التي نقصدها حوالى عشرة كيلو مترات وخفت عند ذلك أشجار الغابات وكثرت أعشاب المرعى.

فسألت مرافقي عن ديانة سكان هذه المنطقة فاخبروني انها

المسيحية وأن الوثنيين بعيدون عنها لأن أكثرهم يسكنون في مناطق الغابات الكثيفة.

الجني يسبب الحوادث

شرع الطريق بالصعود إلى تلة غير مرتفعة ثم انعطف فجأة ليسير في سفحها فقال الشيخ (يوسف نيماقا): الجني ينزل السيارة في الحفرة هنا، ومات ناس كثير بسبب ذلك. وعلق السائق على ذلك بأن الجنيى يلبس لباس الشرطة.

وأضاف الشيخ يوسف: إنه اي الجني ينظر السيارة القادمة بعينيه فلا يعود السائق يرى هذه الحفرة فيسقط فيها ويموت هو ومن معه في السيارة وعندما استفسرت مستغرباً من الشيخ يوسف عن كيفية معرفة ذلك؟ قال: أنا كنت أبيع الماعز هنا وأنا شاب في القديم وأعرف الموضوع.

وهنا تيقنت من أمرين أولهما أن الجني هذا الذي يواجه نور السيارات مع أن الجن من جنود الظلام الذين ينفرون من النور لم يكن في الحقيقة إلا هذا المنعطف الحاد في هذا الطريق المرتفع الذي يصل إليه السائق في الليل وهو لا يرى إلا ما يصل إليه نور سيارته والنور لايصل إلى المنعطف إذا كان السائق مسرعاً بطبيعة الحال.

والثانى أن كون الشيخ يوسف في شبابه يسوق الماعز في هذا الظلام الذي يزيد بل يتكاثف في الاماكن التي تكسوها الاشجار الكثيفة هو ماأوحى إلى روعه بكثرة الجن هنا وبالتالى جعله يتيقن من صحة رواية سائقى السيارات عن الجني الذي يعتذرون بوجوده عن الحوادث عند هذا المنعطف.

ولا ينبغي أن يفهم هذا الكلام على انه إنكار من الكاتب لوجود الجن ولكنه تعليل لروايات غريبة.

في بلدة بوالي

وصلنا بلدة بوالي في تمام الساعة الحادية عشرة ووقفنا في شارعها العام على بائع الشواء وهو يشوي اللحم ويجلس الناس على مقاعد خشبية لا ظهور لها عنده فيأكلون وكانت بنا حاجة إلى الراحة فقال الرفاق:لتكن على هذا الشواء وبدت منى كلمة السؤال عن حل اللحم فبادر البائع يقول بعربية فصيحة: نعم هذا حلال كل الـذين يذبحون هنا هم من المسلمين.

وتبين أنه وجميع من في الحوانيت من هذه السوق الرئيسى الذي فيه حوانيت قليلة إنما هم من المسلمين ويتكلمون العربية باللهجة السائدة في تشاد وفي شمال الكاميرون.

الشواء على الطريق في بلدة بوالي

وأكلنا هذا الشواء الجيد ومعه موز صغير من موز الفاكهة أكلت منه ولم آكل من قطع الكسافا المطبوخة أحضروها ملفوفة في ورقة من أوراق الموز ومربوطة بخيوط من الشجر ولكنها صلبة الملمس تميل إلى الصفرة كأنها عصبة الفتى من الغنم

وكان أصحابنا الافارقة يأكلونها مع غمسها بفلفل أحمر حار أحضره البائع مسحوقاً لهذا الغرض، وإستعمال الفلفل الحار في أكلها له ما يبرره من كونها كتلة صلبة واحدة تحتاج إلى تفتيت في المعدة وقد بقي منا شي من الشواء فناديت صبياً كان ينظر إلينا من دون أن يتكلم فسألته عن اسمه فقال إبراهيم وهي تسمية خاصة بالمسلمين في إفريقية كما هو معروف فأكل معنا من الشواء وذلك كله بألف فرنك إفريقي غربي.

أما الشاى فإنه كان محفوظاً لدى صبى له في وعاء لحفظ الاشياء الحارة يسكب منه في كؤوس صغيرة من المعدن يغسلها في وسط ماء قليل ثم يعيد غسلها فيه مرة ثانية وثالثة وهذا تلويث اكثر منه غسلاً وهو ما كان معمولاً به لدينا في البادية في القديم وقد أحضروا ماء جديداً غسل به أحد الكؤوس وسقونى به.

وقد رأيت أحد الجنود وهو يصغي إلى ما نقوله باهتمام ومظهره مظهر أهل البلاد الأصلاء من ناحية اللون فهو شديد السواد وقد شارك بالحديث بعربية فصيحة كأنما هو من السودانيين وأوضح أن اللحم هنا كله يذبحه المسلمون ثم أخذ يتحدث معنا بالعربية عن شئون المسجد الذي كان قريباً منا على الشارع الرئيسي نفسه وتبين أنه أحد الاخوة المسلمين .

إلى شلالات بوالي

تعمدنا تأخير زيارة مسجد بوالي وتصويره إلى ما بعد الرجوع من رؤية السد لئلا يفسر ذلك على أن زيارتنا هي لأمر آخر.

ويبعد السد ستة كيلو مترات عن بلدة (بوالي) نفسها.

سرنا إليه مع طريق غير مزفلت وإنما هو معبد اى مرصوص قد بعد عهده بالتعهد لذلك يعانى منه الراكب وسيارته تعباً مع أنه طريق مطروق من السياح والزوار الأجانب ومع كون الطريق الممتد إلى بوالي هو مزفلت زفلتة جيدة.

الطريق بين بوالي، والشلالات

واخترق الطريق تلالا غير بالغة الإرتفاع رأينا فيها السكان الوطنيين الافريقيين الاستوائيين الخلص بخلاف من رأيناهم في السوق قبل قليل فكان منهم أناس من السودان الغربي وأهل تشاد ثم وصلنا الشلالات التي سميت بشلالات بوالي على تسمية النهر التي هي جزء من مياهه وبه سميت البلدة نفسها التي كنا فيها قبل قليل.

النزول إلى الشـلال

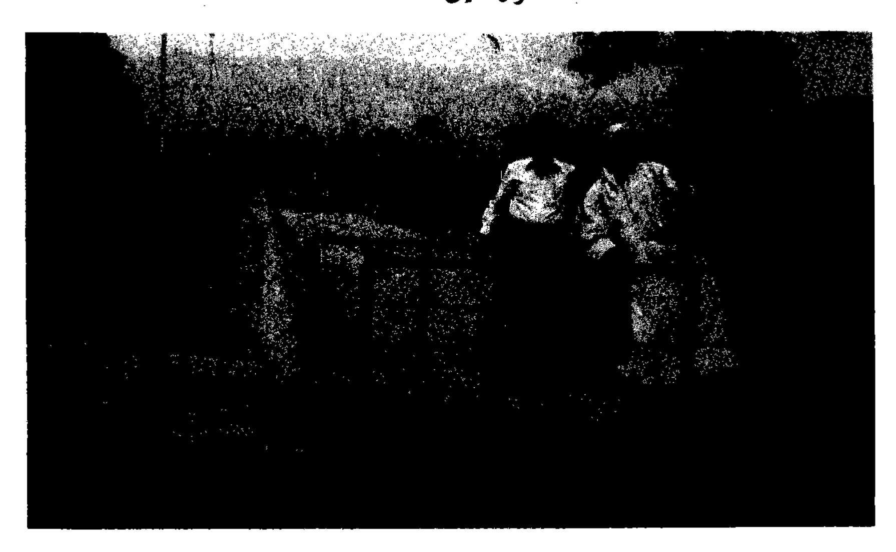

مع الشيخ يوسف نيماقا على القناة الاصطناعية .

وقبل الوقوف على الشلالات إجتزنا ونحن نسير على أقدامنا بقناة صغيرة مصطنعة كانوا قد أقاموها من أجل توليد الكهرباء من مساقطها بخلاف بقية النهر ومنه هذه الشلالات فهى متروكة على طبيعتها.

والشلالات صغيرة لأن جزءاً من مياه النهر كما قلت قد حول لتوليد الكهرباء ولكنها جميلة لانها تسقط من مكان عال على مكان صخرى

ولذلك فهي بالنسبة اليَّ ليست كما تصورتها لأنني شاهدت في السابق شلالات كثيرة عظيمة في العالم كان آخرها قبل شهر شلالا عظيما في بلدة (كانايما) في فنزويلا. ولكن المياه هنا على قلتها تسقط متفرقة فيكون لها منظر انيق.

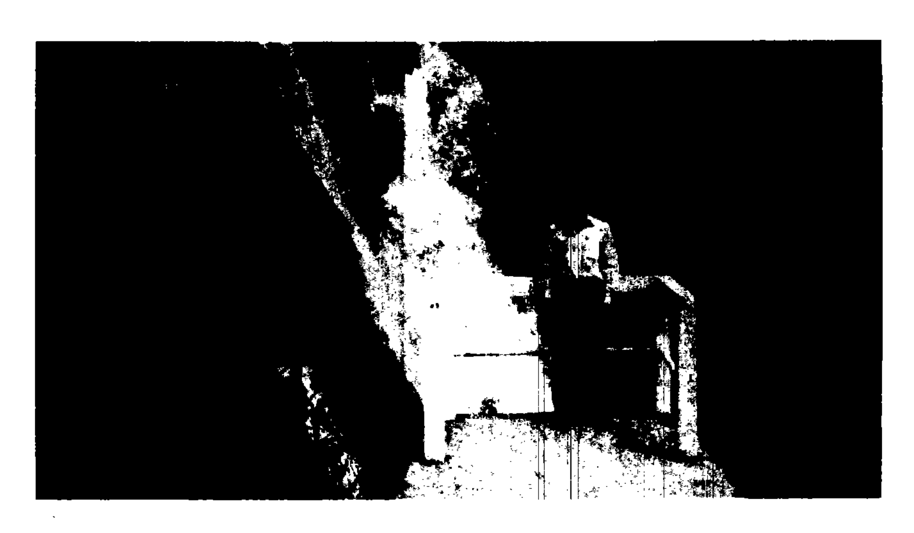

عند جزء من الشـــلال

وبعد التقاط صور متعددة في هذه الشلالات جلسنا تحت مظلة من الخشب والقش فيها مائدة محاطة بالكراسى وهى جزء من مقصف تابع لفندق صغير على شفير هذا الجبل الذي تسقط منه الشلالات ويشرف على الوادي الذى تؤلفه هذه المياه بعد استقرارها في الاسفل.

ومن اللطيف أنهم كتبوا على كل مظلة من هذه المظلات وهي متعددة إسم مدينة من مدن بلادهم فواحدة اسمها (بانقي) والاخرى (موباي) والثالثة (كمبي) وهكذا.

وقد وضعوها فوق الشلالات في قمة الجبل حيث يدغدغ الآذان صوت المياه المتساقطة بحنان مع أن الخيال قد يصور ذلك بانه أنين او حنين من خشية السقوط في الحضيض.

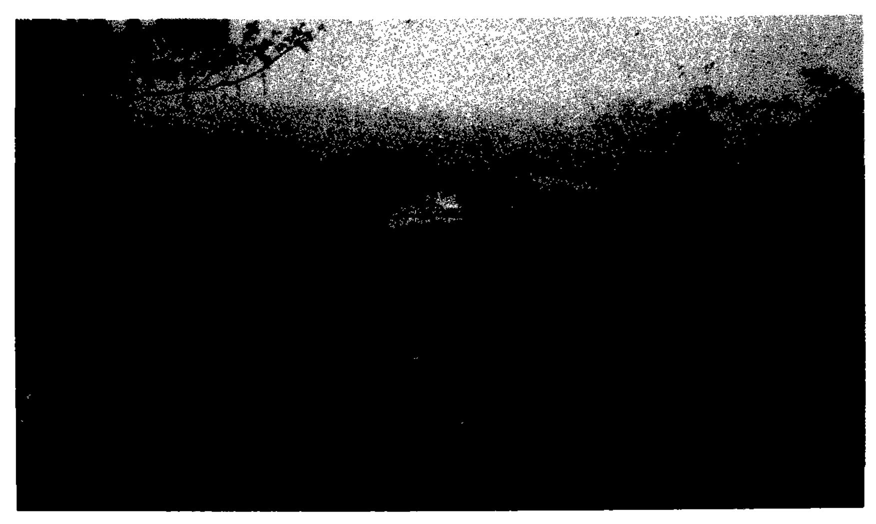

في المرتفع المطل على الوادي

ولما أبديت ملاحظتى على قلة مياه النهر قال الشيخ يوسف: إنه يكون في الخريف كثيراً أما الآن فان هذا الوقت ليس وقت الأمطار.

ويريد بالخريف إبان سقوط المطر.

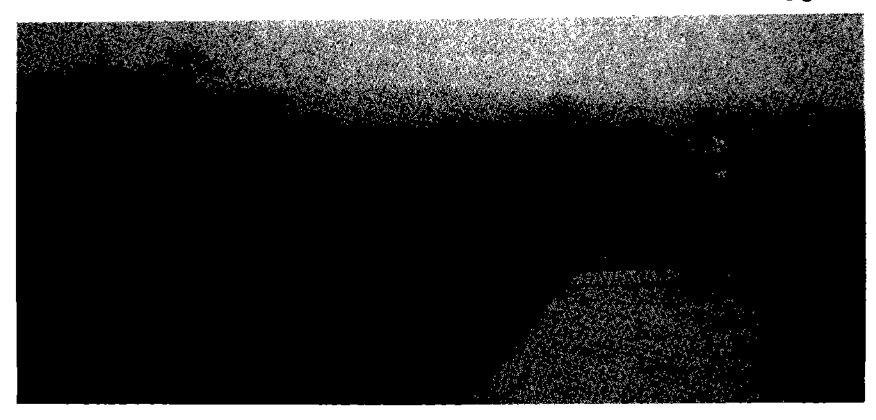

على شفير الوادي المفعم ببخار الماء حيث يتساقط الشلال. ويجري النهر

ومع ان الشمس صاحية والمنطقة استوائية ونحن في شدة القائلة فان الارتفاع القليل في هذه التلة من المنطقة التى تسقط منها المياه قد لطف شدة الحر فصار الهواء نسيماً عليلا إلا أنه لابد من الاحتماء بالظل من الشمس.

نهر بوالي كما يبدو على البعد

وشربنا أشربة باردة ولم نر في هذا المكان الجدير بالزيارة احداً إلا اوربياً وامرأته في شرفة الفندق الصغير المجاور للشلال.

ويقع الشلال في منطقة لقبيلة (آري) إحدى القبائل الاستوائية وهى بأغلبيتها من الكفار.

وعند الشلال قرية صغيرة التقطت صوراً لها لم أر فيها من الحيوان إلادجاجا سارياً من النوع المعتاد.

الشيخ الدكوري والشيخ نياقا عند جانب من الشلال

مسجد بوالي:

عدنا أدراجنا إلى بلدة (بوالي) لمشاهدة مسجدها الجامع بل هو المسجد الوحيد فيها. وقد وقفنا عند لافتته بينما كان أحد الصبية ينادي الامام ونص اللافتة بالعربية: (مسجد النور بمحلة بوالي: كرزم .ج .ا. الوسطى) وفوقها الكتابة بالفرنسية.

ثم حضر الأخ (حسن هارون آدم) من تشاد وقال: إنه نائب الامام في المسجد في صلاة الجمعة. وغني عن القول لما سبق أن كررناه من ان أمثاله التشاديين يعرفون العربية.

وذكر أن عدد المصلين في أوقات الصلوات اليومية في حدود الخمسين وفي صلاة الجمعة ما بين اربعمائة إلى خمسمائة.

وقال: إن هذا المسجد بني قبل عشر سنوات وكان المسجد قبل ذلك بناء صغيراً في ناصية مقابلة من الشارع.

كما ذكر أن المسلمين هنا أصولهم من السودان وتشاد والكاميرون وان عددهم يبلغ حوالي ١٠٪ من سكان البلدة وهذا العدد هو الذي كان قد قاله لنا الجندى المسلم من قبل وهو أن نسبة المسلمين في (بوالي) تبلغ ما بين ١٠٪ الى ١٢٪ والمسجد مبنى بالطين ومطلي بالجص ومسقف بالصفيح وأعجب من ذلك فناؤه الخارجي أي الحوش فهو ليس من الطين وإنما هو من الأعواد الرثة وأما فراشه فإنه من الحصر المصنوعة في هذه البلاد.

المؤلف والشيخ يوسف نيهاقا عند لافتة المسجد
على فنائه الخارجي من الحصر والأعــواد

وقد انضم إلى الأخ حسن هارون عدد من المسلمين وقالوا إنهم لم يتلقوا مساعدة من أحد على بناء المسجد ولا على نفقته بعد ذلك مع أن النفقة هنا قليلة لأنه لا كهرباء فيه وانما رأيت مصابيح الزيت مرفوعة في المسجد.

ومن المؤسف أننا رأينا عند محراب المسجد خرقة موضوعة بجانب المصباح الزيتي عرفها الشيخ الذكوري وسألهم عنها فقالوا: هي

الشيخ الدكوري مع بعض الصبية من المسلمين عند باب المسجد في بوالي

الدايرة للوظيفة والوظيفة هي حلقة الذكر التي تقيمها التيجانية في المسجد.

وهكذا لم يجدوا من ينبههم إلى أن ذلك ليس له أصل من السنة النبوية المطهرة.

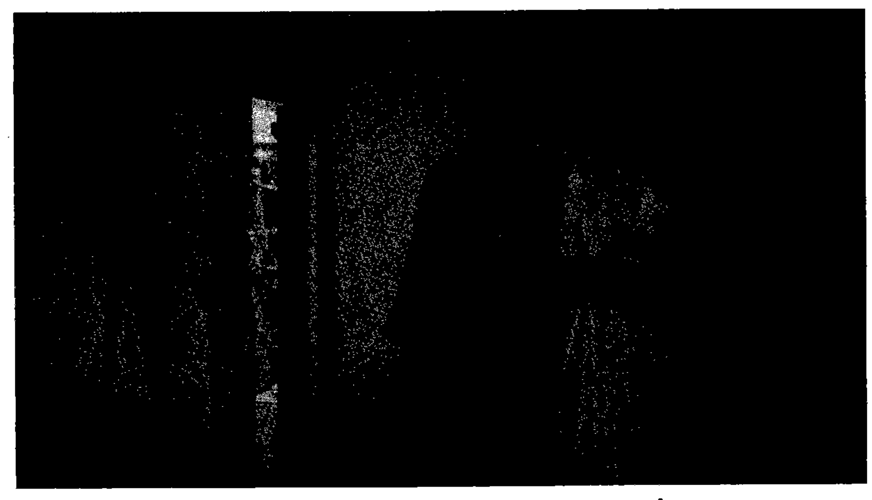

مع أحد الأخوين داخل مسجد بوالي يحمل أحدهما خرقة الدايرة لحلقة الذكر

العودة إلى بانقي

تركنا بلدة (بوالي) آسفين على حالة المسجد من ناحية المظهر وعلى حالة بعض أهله من ناحية الجهل بالسنة.

ولكن الشيخ الدكوري قال: إن للموضوع وجها مشرقاً آخر. فأنا أرى في وجود هذا المسجد في هذه المدينة البعيدة عن العاصمة ومن دون مساعدة من أحد من المسلمين من خارجها ما يحمل على العجب من إنتشار هذا الدين الاسلامي وإنتصاره على غيره وبخاصة في عقول المواطنيين من أبناء الشعب وهذا مصدر إنزعاج دعاة المسيحية الذين يملكون من مقومات الدعاية ما لا يملكه المسلمون ومع ذلك فإن بعض المسيحيين يدخلون في الإسلام ولله الحمد.

والعناية بأمر هذا المسجد واجبة لان كلمة كرزم بالفرنسية تعنى (مفترق طرق) وهذا هو موقع هذه البلدة ولذلك تنبغي العناية بالمسجد وجعله في المستقبل مركزاً للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

وتبعد حدود الكاميرون من بلدة (بوالي) ستين كيلو مترا. أما حدود السودان فانها أبعد من ذلك بكثير إذ تبلغ أربعمائة وخمسين كيلو متراً وعند الانصراف من (بوالي) أوقفنا رجال من رجال الشرطة ثم سمحوا بالانطلاق بعد أن اطلعوا على أوراق السيارة وسائقها.

ونظرت في اللافتة التى على الطريق فإذا بها تقول: إن مدينة بانقي تبعد ثلاثة وتسعين كيلو متراً.

ووصلنا لفندقنا (فندق رك) أو الصخرة في الساعة الرابعة عصراً، وفي الرابعة والنصف بينما كنت أريد أن أكتب في المقصف على شاطىء

النهر حضر إليَّ جماعة من الاخوة من المشايخ والمعلمين كانوا قد سمعوا بقدومنا أخبرهم بذلك بعض من قابلناهم من قبل فجلسوا فترة في نقاش حول بعض الامور المتعلقة بالمدارس الإسلامية والمساجد.وكان هذا مدعاة استغراب للأوربيين الذين كانوا في المقصف من سياح وعاملين إذْ حضر هؤلاء الاخوة بملابسهم العربية واثنان منهم عليهم العباءات أيضا ولم يكن منظرهم في مثل هذا المقصف مألوفاً لانهم لا يرتادونه في العادة.

في السوق السنغالي

كنت سألت عن بعض الاشياء التي توجد في هذه البلاد ويمكن أن يشتريها السائح من العاج والحقائب المصنوعة من جلود التماسيح والحيات وهي تكثر في العادة في بلاد الغابات مثل جمهورية إفريقية الوسطى فاخبرونا أنها موجودة بكثرة في سوق خاص بها اسمه السوق السنغالي لأن معظم البائعين فيه هم من السنغاليين في الاصل وإن كان من بينهم الآن من هم من غير السنغاليين من أهل السودان الغربى.

ويقع في الحي التجاري الجيد من العاصمة لان رواده في العادة يكونون من السياح الغربيين وهو سوق على هيئة حوانيت محيطة بميدان واسع تقف فيه السيارات فرأيت بضائعهم أنواعاً منوعة من العاج وما صنع منه وكذلك من الحقائب النادرة يضاف إلى ذلك بعض الاحجار نصف الكريمة المجلوبة من زايير وغيرها من أنحاء إفريقية.

ويقال: إن الماس يباع أيضاً في هذا السوق الذي لا يدل مظهره على هذه الأهمية ومن الملفت للنظر أن معظم البائعين فيه يرتدون الملابس العربية التي أكثرها ظهوراً القمص الشبيهة بالسعودية وأكثرهم يعرفون العربية ايضاً لأنني قد تحدثت إلى طائفة منهم.

إلا أنني لاحظت ظاهرة غير جيدة عند بعضهم وهي رفع سعر السلعة أكثر من سعرها الحقيقي عندما يسأله مبتغى الشراء عن قيمتها فاذا ما رفض الشراء بهذا السعر فإنه يحاول أن يغريه بخفض الثمن وهكذا.

وهي طريقة مستعملة في البلدان الشرقية لكنها غير مألوفة في الغرب وانما المألوف أن تكتب قيمة السلعة عليها فمن شاء اشترى بتلك القيمة أو ترك دون مماكسة.

وبعد المغرب كرر الزيارة بعض الاخوة من أئمة المساجد والمدرسين في الكتاتيب الإسلامية وكنا قد رتبنا لقاء مع شخص سياسي مهم من مسلمي هذه البلاد وهو الأخ (إسماعيل نيماقا) السفير السابق لجمهورية إفريقية الوسطى في بغداد وممثلها في الخليج العربي وكان قد قضى في بغداد أربع سنوات، وصار خبيراً في شئون المنطقة ولذلك عينته حكومته مسئولا عن الشئون الإسلامية في وزارة الخارجية عندما عاد قبل وقت قصير إلى بلاده. كما سبق أن زار المملكة العربية السعودية بصحبة وزير الخارجية السابق لهذه البلاد وهو أحد المسلمين واسمه (صالح) ولكنه تعلم في مدرسة مسيحية فغيروا اسمه إلى اسم مسيحي ويشغل الآن منصبا هاماً في الدولة هو الامين العام للحكومة بمعني أنه المسئول عن تنسيق العمل بين الوزارات المختلفة في هذه الحكومة.

وقد حضر الأخ السفير (اسماعيل نيماقا) إلا أن جلوس هؤلاء الأخوة منعنا من بحث ما نريد بحثه معه فاتفقنا على موعد جلسة اخرى تكون في بيته صباح غد قبل سفرنا.

يوم الثلاثاء ١٤٠٥/٥/١هـ ١٩٨٥/١/٢٢م.

أحوال المسلمين

حزمنا أمتعتنا مبكرين وفي الثامنة صباحاً كنا نغادر الفندق تحمل امتعتنا سيارة للأخ السفير اسماعيل نيماقا الذي كان قد دعانا الى بيته أمس.

ويقع بيته في حي راق من ضاحية بعيدة عن قلب المدينة ويتألف الحي من دارات (فيلات) ذات حدائق جيدة لأن المنطقة كانت منطقة غابات وأشجار كثيفة قبل اتخاذها منازل الا أنه لا إزفلت في شوارعه.

مع الشيخ اسماعيل نيماقا في بيتـه

استقبلنا الأخ اسماعيل وكلمنا بعربية فصيحة لا تستغرب من أمثاله من المسلمين إضافة الى كونه عاش في البلدان العربية فترة.

وجلسنا معه جلسة مفيدة بل هامة إذْ سمعنا منه أشياء جديدة عن أحوال المسلمين في هذه البلاد كما سمعنا منه تاكيداً لما كنا قد سمعناه من قبل.

قال من بين ما قاله: إن رئيس البلاد قد فوضه من خلال عمله الأخير في تقوية العلاقات بين بلاده والبلدان العربية الإسلامية. وقال: إن أهم مشكلة تواجه الدعوة الإسلامية هنا هو إختلاف المسلمين في عملهم وعدم وجود مؤسسة أو جمعية واحدة تجمعهم ويمكن أن تتكلم باسمهم لدى الحكومة ولدى المسلمين في الخارج.

ثم اخذ يحدثنا عن المسلمين حديث العارف بل الخبير لأنه كان قبل أن يسافر إلى بغداد مسئولا عن الشئون الدينية كما كان مسئولا عن الأمن في البلاد فكان مما قاله أيضاً: كان الرئيس السابق (دافيد داكو) يحب المسلمين ويزورهم في المسجد وقد أمرني بإحصاء المسلمين فعلمنا ان نسبتهم تبلغ بين مواطني جمهورية إفريقية الوسطي الاصلاء ١٧٪ كما كانت نسبة المسلمين المهاجرين في ذلك الوقت إلى بلادنا عالية جداً. وبذلك كانت نسبة المسلمين في البلاد عام ١٩٨١م تبلغ ٣٢٪.

وهذا كان قبل نشوب الحرب الاهلية في تشاد وقدوم حوالي مليون ونصف مليون من تشاد إلى هذه البلاد وهم من المسلمين.

وعلى هذا تصبح نسبة المسلمين الآن في جمهورية إفريقية الوسطى بين مواطنين أصلاء ومهاجرين مالا يقل عن ٦٠٪ حسب التقديرات غير المبالغة، لأن اهل تشاد يؤلفون الآن النصف تقريبا من السكان ويقيمون في أنحاء عديدة من البلاد.

قال: واما الرئيس الحالي وهو (بول بيا) فانه سمعه يقول: أنا مبسوط من المسلمين وأكون معهم دائما.

وقال: ومن الموظفين الرئيسيين في الدولة ثلاثة وزراء هم صالح المتقدم ذكره ووزير الإقتصاد ووزير الداخلية ومدير تدريب الموظفين (صالح ابو بكر).

وقال: لا أشك في أن المستقبل في هذه البلاد هو للإسلام ففي كل وقت يدخل أناس من الوطنيين في الإسلام.

وقال: ومن الملاحظ أن الدخول في الإسلام لا يقتصر على الناس البسطاء بل انه يدخل في الاسلام اناس متعلمون ومثقفون.

وقد الححت عليه في ان يبين الاشياء التي ينبغي أن نعمل نحن وامثالنا في التعاون عليها من أجل رفع شأن الإسلام والمسلمين في هذه البلاد فقال: المهم هو تأسيس مدرسة إسلامية نظامية واصلاح المساجد والمدارس القرآنية ومدها بما تحتاج إليه لانها هي التي تعلم العربية وبدون معرفة اللغة العربية لا يستطيع المسلم أن يفهم دينه فهما صحيحا مباشراً من مراجعه الأصلية.

وقال: إن المسلمين يحتاجون إلى دعاة ومدرسين لتعليم الدين ومنح دراسية لابناء المسلمين.

وانطباعي أن ما ذكره عن نسبة المسلمين في البلاد هو من باب التفاؤل ومحبة المسلم لتقوية اخوته المسلمين في العدد وإلا فانهم لا يبلغون هذه النسبة مع تقديري لتحريه الصواب وانه أعلم مني في هذا الامر لأن البلاد بلادهم وهو متابع للموضوع منذ وقت طويل.

مغادرة افريقية الوسطى.

ودعنا الأخ اسماعيل نيماقا شاكرين متجهين إلى المطار فوجدنا فيه طائفة من الاخوة من ائمة المساجد والعاملين في المدارس الإسلامية ومع بعضهم اوراق فيها طلبات لمساعدة مدارسهم ومنهم الشيخ محمد باشر وهوقاضى المسلمين في الاحوال الشخصية والصلح بينهم معترف به من الحكومة كما أنه مأذون أنكحة معتمد ايضا وهو صاحب مدرسة إسلامية اسمها (مدرسة النصر) قال لي احدهم: إنها أول مدرسة إسلامية افتتحت في هذه البلاد ولاادري صحة ذلك.

ثم ادخلونا الى غرفة كبار الزوار أو مايسمى بصالون الشرف ولم يكن هذا رغبة منى لانه يحرمني من مشاهدة جماهير الناس وكيفية تصرفهم في امورهم وكيفية معاملة الموظفين لهم.

وقد استقبلنا رئيس المراسم في المطار في الغرفة التي دخلناها عند القدوم وكانت مليئة بزوار رسميين من وزراء وغيرهم ثم دخل سفير زايير في هذه البلاد ويتميز مظهره إضافة إلى القصر المعتاد فيهم بما يوحي بالتعاظم والتكبر وهي شنشنة معروفة في كبار الموظفين من اهل (زايير).

وبينما كنا نتناول المرطبات في الغرفة كنا نشاهد الطائرات الحربية الفرنسية العديدة رابضة في ركن من المطار وحولها عدد قليل من الجنود الفرنسيين وذلك أن في إفريقية الوسطى قاعدة عسكرية فرنسية مهمة.

ثم صعدنا إلى طائرة الشركة الفرنسية المسماة (ايتى) وهي شركة رديفة للخطوط الفرنسية الرئيسية (اير فرانس) ولكنها تعمل في مناطق معينة من العالم.

وطائرتها من طراز (دي سي ١٠) الضخم ولم يكن معنا في الدرجة الاولى إلا رجلان عليهما مظهر الأوربيين.

وقامت من مطار (بانقي) في الساعة الواحدة والربع ظهراً قاصدة مطار (انجامينا) في تشاد واعلنت المضيفة الفرنسية وكل المضيفات فيها من الفرنسيات ان المسافة الى (انجامينا) هى ساعة وعشر دقائق. ولم يكن في هذه الطائرة الفرنسية الكبيرة ما تمتاز به من الضيافة أو حتى الخدمة الجيدة ومن ذلك أن ضيافتهم كانت قطعا صغيرة من الشطائر (الساندويتش) في القطعة الكبيرة منها لحم خنزير مع انهم يعلمون أن نسبة كبيرة من ركاب الطائرة هم من المسلمين.

واذكر بهذه المناسبة أننى ركبت مرة مع الخطوط الفرنسية من باريس إلى جدة عن طريق أثينا فسألت مضيف الدرجة الاولى من باب الإحتياط عما اذا كان الطعام خاليا من لحم الخنزير فقال: إننا لا نضع لحم خنزير على امثال هذه الرحلات المتجهة إلى جدة.

وكذلك سألت مضيفاً اخر في الدرجة الاولى من طائرة لهم ايضاً كنت مسافراً معها من مدينة كراتشى في باكستان إلى مدينة (بكين) عاصمة الصين فكان جوابه مثل ذلك.

لقد ارتفعت الطائرة ولم يكن الجو صافيا لذلك لم يكن في الرحلة إمتاع.

فوق تشـــاد

بعد ساعة من الطيران رأينا على البعد نهر (شاري) الذي تقع عليه (انجامينا) عاصمة تشاد ويفصل النهر بينها وبين شمال الكاميرون من الجهة المقابلة لمنطقة العاصمة:

ومنظر النهر لمجرد كونه نهراً في بلاد تشكو من مجاعة، وينزح اهلها إلى البلاد المجاورة طلبا للطعام وهربا من الجوع بسبب الجدب وانحباس الأمطار سنوات متتالية أمر له معنى إذ كيف يجتمع نهر جار ومجاعة من قلة الطعام؟

وقد يقال: إن هذا النهر صغير والبلاد واسعة وامكانات اهلها في إستغلال النهر قليلة وهذا صحيح ولكن الصحيح أيضاً أنهم لم يستغلوا هذا النهر كما ينبغي بدليل أنني رأيت بعض ضفافه من الطائرة عارية من النبات تماما. بمعنى أنه ليس عليها زراعة.

وأما منظر المنطقة فانه كان مفاجئا لأنه عكس ما كان عليه المنظر في الكاميرون وفي إفريقية الوسطى فهو هنا صحراوى علي البعد مغبر النواحي بخلاف القطرين الاولين فهما من أقطار الغابات الاستوائية الملتفة والخضرة الشاملة بل الكثيفة.

على أن منظر البلاد في هذه المنطقة تشاد هو احسن من منظر الصحراء في بلادنا أو بلاد موريتانيا مثلا لأن المنطقة عامرة باشجار صحراوية كبيرة تشبه اشجار الطلح على البعد وقد تكون مثلها في الحقيقة او تكون هي هي.

ولكن الشيء الواضح جدا أن الافق نفسه خال من بخار الماء الذي يرى من الطائرة في آفاق البلدين الذين تركتهما فهو هنا صحراوى ليس فيه الا الغبار.

ورايت بوضوح آثار الوديان الجافة التي كانت تجري بالمياه اذا كثر المطر ولم يبق فيها إلا الرمال كالتي تكون في بطون الأودية في الصحراء في العادة.

ولقد قلت لنفسي: اذا كان هذا هو شأن الجنوب التشادي الأكثر خصباً لانه واقع في منطقة الساحل التي يراد بها ساحل الصحراء اي طرفها مما يلي الاراضي الخصيبة كيف تكون حال الشمال من تشاد الذى هو واقع في الصحراء نفسها؟

ثم ذكرت في نفسي ما تخيلته من ان التصحر سوف يستمر في الذهاب إلى جهة الجنوب نتيجة لتغير مناخ الارض. ولكن الخصب سيقدم من الشمال وستكون أطراف الصحراء جهة الشمال أكثر خصباً بعد سنين لا يعلم قدرها الا الله تعالى.

وذلك انسجاما مع قاعدة تغير الجو وتبدله على مدى القرون الطويلة ذلك التغير الذي جعل هذه الصحراء الافريقية الواسعة على ما هي عليه الآن من الجدب وقلة الامطار بعد أن كانت في ماضى السنين عامرة بالحيوان كثيرة المياه والانهار ولله في خلقه شئون واذا اراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

ولكنني في هذا الامر قد طرأ على ذهنى شيء تذكرته كنت قد عرفته من أهل إفريقية الوسطي وهو أن عامة اللحم الذي ياكلونه مستورد من تشاد يعني ان تشاد لا تزال رغم الجفاف ترسل حيوان اللحم إلى إفريقية الوسطى ذات الغابات والامطار بل ذات الانهار.

وذلك بسبب عدم ملائمة جو الغابات لتربية الماشية عند قوم ليست لديهم إمكانات التحسين للبيئة أو تطهيرها من الأمراض و الاعراض التي تصيب الحيوان.

كما أن حاجة أهل تشاد إلى هذه المواشي جعلتهم يحافظون عليها وينمونها بحسب ما تسمح به ظروف بلادهم.

وايا كان الامر فان المحل والجدب المسمى بالجفاف في هذه المناطق هو أقل مما هو موجود في صحرائنا العربية ما خلا الواحات وكذلك هو اقل من المحل والجدب الموجود في الصحراء الموريتانية بكثير كما تقدم.

ولذلك سألت نفسي وأنا أرى نهر (شاري) يجري بالمياه عما يكون عليه الأمر في مثل هذا النهر لو كان في بلادنا وكيف نستغله إلى ابعد حدود الاستغلال بعد ان ندون له تواريخ طويلة عريضة ونقرضه بقصائد شعرية كثيرة ربما تصل إلى دواوين.

وكنت استعد لتهيئة (مصورتي) لالتقاط صورة لنهر شاري إلا انني سمعت المضيفة وهي تقول من مكبر الطائرة: ارجو من حضرات الركاب أن يلاحظوا أن التصوير هنا ممنوع.

وهذا من آثار الحرب الأهلية التي تقسم التشاديين وتفصل شمال البلاد عن جنوبها في الوقت الحاضر.

في مطار انجامينا:

حامت الطائرة فوق المنطقة التى تحيط بمطار(انجامينا) فتجلت على طبيعتها وهي مليئة بالاشجار الصحراوية الكبيرة ولكنها جافة إلاّ بعض الاشجار الكبيرة الواقعة في بطون الاودية، واتسع مجرى نهر (شاري) عند النظر إليه من قرب أكثر مما كان عليه قبل ذلك فبان زاخراً بالمياه، يشكو الضياع والإهمال.

وظهرت البيوت في هذا الريف الصحراوي مبنية بالطين لا ترى على البعد لأن لونها هو لون الارض

ثم هبطت الطائرة في المطار وهو طويل المدارج اكثر سعة مما تخيلته ومما رايته عليه قبل عشر سنوات خلت إلا ان الإزفلت فيه تشقق أكثره ولا شك في ان سبب ذلك هو العوامل الجوية القاسية المتذبذبة ما بين جو جاف وجو رطب في أوقات المواسم حتى وإن لم يكن مطيراً إضافة إلى شدة حرارة الشمس في المنطقة.

ومن مدرج المطار يرى المرء أشجاراً صحراوية واخرى مسقية خضراء إلا انها لا تبعد كثيراً عن ضفة النهر.

وكان اهم مظاهر العناية في هذه العاصمة المسلمة المنكوبة بالحرب الاهلية وجود ثلاثة خزانات للمياه مبنية من الاسمنت المسلح القوي وبهيئة معتنى بها وعلى طراز حديث بحيث يشبه الواحد منها القمع أي (ألمحقن).

وفي المطار طائرات حربية عدة. وطائرة مدمرة ترى على البعد.

أما برج المطار فانه يبدو جيد المظهر بل على غاية الجودة وهو عكس ما تخيلته عليه. وقد أحسست عند النزول من الطائرة بأن الجو هنا كالجو في شمال نيجيريا وجنوب المملكة في الشتاء حيث تكون الشمس حارة والهواء عكس ذلك.

وشعرت بنشاط عظيم لجفاف الجو وخفة الهواء بعد جو وسط إفريقية الحار الرطب بل المثقل بالرطوبة.

وقال لي زميلي ورفيقي الشيخ الدكوري إنه شعر بمثل هذا بالفعل بل قال بعد ان لبثنا في المطار فترة إنه كان يحس بثقل في كتفيه من اثر الجو الرطب في وسط افريقية وإنه احس أنه قد زال الآن.

على أنني فسرت الامر تفسيراً أخر وهو أنه ربما كان هذا من وحي الخيال الذي أوحى الينا بأننا وصلنا بالفعل إلى بلاد مسلمة شقيقة فنحن في الحقيقة نشعر انها مثل بلادنا وأن هذا هو مصدر الراحة رغم ما يسببه تذكر ما فعلته الحرب الاهلية في اهل تشاد من آلام.

وكان أول ما شد إنتباهي أن الجنود الذين كانوا كثيرين في المطار سمعتهم يتكلمون العربية ثم دخلنا إلى بناء المطار وهو بناء حديث جميل كل ما فيه ينطق بالذوق بل وبملاحظة الاصلاح والترميم فيه رغم حالة الحرب الأهلية ولأدرى متى بني ولا من ساعد على بنائه ولكنه على أية حال قد بني حديثاً.

جلسنا في قاعة العابرين (الترانزيت) لاننا من المسافرين العابرين إلى مدينة (نيامي) عاصمة النيجر وهذه القاعة أحسن كثيراً من قاعة العابرين في مدينة بانقى التي جئنا منها.

وكنا سألنا عن الطائرة التي سنسافر بها إلى (نيامي) عاصمة النيجر وهى طائرة الخطوط الافريقية (إيرأفريك) فأخبرونا أنه قد بقي على وصولها حوالي نصف ساعة.

ذكريات تشاد.

إنصرف صديقي الشيخ الدكوري مع أحد الموظفين المسئولين في المطار من أجل التأكد من وصول الحقائب وتحويلها إلى الطائرة الإفريقية القادمة وبقيت في قاعة العابرين أجتر ذكرياتي القديمة عن (تشاد).

وليس هذا بمكان الحديث عنها حديثاً مفصلاً فقد زرتها قبل عشر سنوات بالضبط منتدباً للإطلاع على أحوال مركز الفيصل الذي كانت

تقيمه المملكة العربية السعودية في العاصمة (انجامينا) ولم يكن قد اكتمل آنذاك عام ١٣٩٥هـ ـــ ولم يكن يومها في تشاد حرب اهلية إلا في الشمال القصي أما العاصمة فإنها كانت مستقرة وكان السفير السعودي آنذاك هو الأخ الاستاذ النبيل: «عباس فائق غزاوي» وقد تجلى نبله في أمور كثيرة من أهمها عنايته بشئون المسلمين وعنايته بي عندما وصلت إلى هذه البلاد التشادية فتعاونا على إنجاح المهمة التي قدمت إلى تشاد من أجلها

كما أعطاني سيارته ومعي بعض الموظفين في يوم أحد فسرنا إلى داخل الكاميرون حيث وصلنا (مروي) وتوغلنا مسافة مائة وخمسة وأربعين كيلو مترا داخلها عن طريق البر وكنا حملنا السيارة على عبّارة فوق نهر (شارى) هذا إلى أرض الكاميرون.

ويومها قلت للذين سألوني عن رأيي في تشاد عندما عدت منها: إنه إذا استمرت الأمور على ما هي عليه في تشاد فان البلاد ستصبح عربية اللغة بعد عشر سنوات.

واليوم وقد مضت السنوات العشر بالضبط ولم تستمر الامور على ما كانت عليه من الاستقرار سواء في منطقة العاصمة أو في غيرها من أنحاء البلاد فإن اللغة العربية اصبحت هي اللغة الشائعة في تشاد وهي المشتركة التي يتفاهم بها المواطنون حتي الذين منهم يتكلمون بلغات محلية أخرى.

ومن المظاهر الغريبة في المطار أن اللغة العربية التي كنا نسمعها من افواه الناس لا نقرأها مكتوبة على اللافتات لأن الكتابة كلها بالفرنسية

ولم يتخذ أهل تشاد اللغة العربية لغة رسمية أولى لهم وكنت اراقب الناس من خلال حاجز زجاجي يفصل بين قاعة العابرين وقاعة المسافرين فرأيت الضابط المسئول عن الصحة وهو رجل مهم بدليل أنه يجب ان يرى جواز أي مسافر وأوراقه رأيته يرتدي قميصاً عربياً بل سعودياً وطاقية وليس عليه غير ذلك مع أنه يؤدي عمله الرسمي في المطار وأمام المسافرين والزوار من المواطنيين والأجانب إلا أن المذياع كان يذيع في المطار أغاني غربية وأخرى عربية محلية باللغة العربية تشبه الأغاني السودانية.

وعندما خرج الركاب العابرون من الذين سيسافرون مع الطائرة الفرنسية التي قدمنا بها دخل من الباب ذباب صحراوى ملح ــ من الالحاح وليس من الملاحة بالطبع ــ فآذاني بطرده.

وهذا مظهر صحراوي ولكن هناك مظهراً صحراوياً آخر وهو النحافة الظاهرة على الجنود وبعض الموظفين في المطار كما يكون عليه الحال بالنسبة إلى سكان الصحراء في الغالب.

وشيء آخر يشهد لذلك إن كان الامر يحتاج إلى شهادة ولكنه من خارج القاعة وهي ما نسميه في لهجتنا العامية (المعاصير) وهي الأعاصير بالفصحى إلا أنها ليست الأعاصير البحرية المعروفة عند كتاب الصحف فهذه التي رأيتها الآن خارج مدارج المطار في الأماكن الصحراوية كنت أرى مثيلاتها في بلادنا في منتصف النهار وهي غبار واقف يلتف حول نفسه وهو يسير تثيره رياح صحراوية خفيفة.

ثم غادرنا مطار انجامينا مع الخطوط الافريقية إلى نيامي عاصمة النيجر وللرحلة إلى النيجر حديث في كتاب آخر عنوانه: «أيام في النيجر»

ملاحظات على الوضع الإسلامي في جمهورية إفريقية الوسطى :

أولاً : حرية الدعوة إلى الاسلام في جمهورية إفريقية الوسطي وعدم وجود قيود عليها سواء من ناحية الحكومة او عامة الشعب.

ثانياً : كثرة عدد المسلمين بحيث يبلغ عددهم مابين مهاجرين وسكان أصليين ما لا يقل عن ٥٥٪.

ثالثاً : انتشار اللغة العربية على ايدي الاخوة المسلمين المهاجرين من تشاد هربا من الحرب الاهلية او المجاعة الناتجة عن الجدب أو لمجرد الحصول على فرص للعمل.

رابعاً : تدني حالة المساجد والمدارس من حيث الابنية والاثاث إذ اكثرها مبني بالطين ومسقف بالصفيح وليس لمعلمي المدارس مرتبات وانما يجمعون في العادة ما يتقاضونه من اولياء امور الطلبة الاغنياء وهو قليل ويتقاسمونه بينهم.

خامساً : عدم وصول مساعدات مالية من أية دولة عربية او إسلامية ما عدا بعض التبرعات التي قدمها السفير السعودي في الكاميرون عبدالرحمن العقيل لعمارة بعض المساجد والمدارس الملحقة بها، ومسجد حي مسكين في العاصمة (بانقى). ولا يزال الاثر الطيب في نفوس المسلمين لزيارة السفير باقيا وان كانوا يتطلعون الى المزيد من مساعدات المملكة.

سادساً : يتطلع المسلمون من سياسيين ورجال دين إلى المملكة العربية السعودية لتقوية الصلات وانتظار المساعدات والعون الإسلامي.

سابعاً : علمنا انه لا وجود للشيوعية او الاتجاهات اليسارية في

حكومة جمهورية إفريقية الوسطى بل في البلاد كلها ولذلك ننصح بتقوية العلاقات مع هذه الدولة تقديراً لموقفها الطيب من المسلمين في البلاد سواء أكانوا من المواطنين أم من المهاجرين.

وكذلك الاثر الحميد لزيارة وزير خارجية إفريقية الوسطى سابقاً إلى المملكة والامتنان للمساعدة الاقتصادية التى قدمتها المملكة إلى إفريقية الوسطي.

الاقتراحـــــات:

اولاً : ارسال وفد رسمى من الرابطة يعلن عنه قبل وصوله ويكون معه مبالغ لترميم المساجد وفرشها من صندوق المجلس الاعلى العالمى للمساجد لا تقل عن مائتى الف دولار.

كما يحمل الوفد مبلغاً لمساعدة المدارس الاسلامية لا يقل عن مائة الف دولار اخرى.

مع ملاحظة أن عدد المساجد في العاصمة هو واحد وعشرون مسجداً منها ثمانية تقام فيها صلاة الجمعة واكثر هذه المساجد حديث البناء لم يمض عليه اكثر من خمس سنوات مما يدل على مدى سرعة انتشار الاسلام في البلاد بعد الاستقلال.

ثانياً : إمداد المدارس الإسلامية بالكتب الدراسية والمقررات بالعربية مع بعض الكتب الاسلامية بالفرنسية والمصاحف الشريفة.

ثالثاً : أن تقوم الرابطة بالمساعدة على انشاء رابطة أو منظمة لائمة المساجد في إفريقية الوسطى على غرار ما تم في السنغال

ليمكن ان تكون هذه الجمعية مسئولة عن العناية بالمساجد والمدارس الإسلامية أمام الحكومة وامام رابطة العالم الإسلامي.

ويمكن ان يرصد لهذا الغرض مبلغ في حدود عشرين الف دولار بما في ذلك تكاليف الاجتماع الذى سيعقد وتنقلات الائمة من القرى والارياف الى داخل العاصمة وبالعكس لحضور الاجتماع التاسيسي.

رابعاً : تأييد انضمام جمعية الشباب الإسلامي في إفريقية الوسطى إلى الندوة العالمية للشباب الاسلامى وان تقوم الندوة بالاتصال بجمعية الشباب المسلم في إفريقية الوسطى وباقامة مخيم للندوة هناك.

خامساً : إقامة دورة لتدريب الأئمة في إفريقية الوسطى ينضم اليها ائمة المساجد في الكونغو برازافيل وتشاد والجابون وذلك لكون الجو السياسي والاقتصادى مناسباً في إفريقية الوسطى لذلك أكثر من الاقطار المذكورة. وايضاً لتقوية الوجود الإسلامى المتنامي فيها.

سادساً : زيادة المنح المقررة لأبناء المسلمين من إفريقية الوسطى في الجامعات والمعاهد الاسلامية في المملكة.

سابعاً : ان يوكل إلى وفد الرابطة المقترح اختيار عدد من زعماء المسلمين وعلى رأسهم الحاج إسماعيل نيماقا وكذلك من العاملين في الحقل الإسلامي ودعوتهم لزيارة الرابطة واداء العمرة وزيارة المدينة المنورة والاجتماع بالمسئولين عن الدعوة.

ثامناً : الإتصال بالأزهر الشريف وبالجهات العاملة في ميدان الدعوة الإسلامية في الكويت وغيرها لتنسيق العمل الإسلامي المذكور في «إفريقية الوسطى».

المحتويات